

نزول القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت :
 و جاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغططني حتى بلغ
 مني الجهد ، ثم أرسلني ، وكرر ذلك معي ثلاث مرات ، وفي الأخيرة قال له :
 و اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم
 الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

النزول في الأصل . انحطاط من علو ، يقال : نزل عن دابته : إذا حط
 عنها ، ونزل بكذا وأنزله بمعنى ، وإنزال الله تعالى نعمه ونعمه على الخلق :
 إعطاؤهم إياها ، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه ، كما ينزل القرآن ، وإما بإنزال
 أسبابه ، والهداية إليه ، كما ينزل الحديد واللباس ، ونحو ذلك ، والفرق بين الإنزال
 والتنزيل في وصف القرآن ، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقا ،
 والإنزال عام ، وأما التنزل ، فهو كالنزول به ، يقال : نزل الملك بكذا وتنزل ،
 ولا يقال : نزل الله بكذا ، ولا تنزل .

ويطلق النزول أيضاً ويراد به الحلول في المكان ، يقال : نزل في مكان كذا :
 إذا حل فيه ، وأوى إليه .

غير أن النزول بمعنى انحدار الشيء من علو إلى سفلى ، وبمعنى الحلول
 في المكان ، والأوى به ، لا تليق لإرادته في نزول القرآن من الله تعالى ،

ولا في إنزاله إياه ، لما يلزم هذين المعنيين من صفات الحدوث ، فلا بدّ إذن من استعمال النزول في معنى مجازي ، وقال البعض : إن المراد بإنزال القرآن إظهاره في مكان عال ، ثم إنزال الملك به من ذلك المكان ، وقال آخرون : إن المراد بإنزاله إعلام الملك به ، وإفهامه إياه ، ثم إنزاله بما فهمه ، وقيل غير ذلك ، ويرى بعض الباحثين أن الأولى والأحسن جعل المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته .

ولما كان نزول القرآن يتصل اتصالاً وثيقاً بالوحي ، لمجيئه من طريقه ، ووصوله في بريده ، كان من الضروري أن نشير إشارة عابرة إلى معنى الوحي وأقسامه وكيفية صورته ، حتى يتسنى لنا أن نعرف حقيقة النزول في وضعها الصحيح الأكمل .

فالوحي عند أهل اللغة يطلق على الإعلام في خفاء ، وعلى الكتابة والمكتوب والبعث ، والتصويت شيئاً بعد شيء ، وقد يجيء بمعنى الأمر نحو : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي » ، وبمعنى التسخير نحو : « وأوحى ربك إلى النحل ، أي سخرها لهذا الفعل ، وهو اتخاذها من الجبال بيوتاً الخ ؛ وقد يعبر عن ذلك بالإلهام ، لكن المراد به هدايتها لذلك ، والافالإلهام حقيقة إنما يكون لعاقل ، نحو : « وأوحينا إلى أم موسى » ، وقد يجيء الوحي بمعنى الإشارة نحو : « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » ، وقيل : أصل الوحي التفهيم ، فكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة أو إيماء فهو وحي .

والوحي في اصطلاح الشرع : إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء إما بكتاب أو برسالة ملك ، أو منام ، أو إلهام ، وقد يطلق على الموحى كالقرآن والسنة من إطلاق المصدر على المفعول ، قال تعالى : « إن هو إلا وحي يوحى » .

وأما صور الوحي في كيفية نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكروا له سبعة أحوال : أحدها : أن يكون ذلك في المنام ، كما في حديث عائشة : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة . ثانياً :

أن ينفث الكلام في روعه نفثاً ، كما في حديث : إن روح القدس ينفث في روعي .
ثالثها : أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، كما في حديث : كيف يأتيك الوحي ؟
رابعها : أن يتمثل له الملك في صورة رجل ، كما في حديث كيفية الوحي أيضاً .
خامسها : أن يترامى له الملك في الصورة التي خلقه الله عليها ، سادسها : أن يكلمه الله من وراء حجاب ، إما في اليقظة ، كما كلفه في ليلة الإسراء ، وإما في المنام ،
كما في حديث الترمذي : « أتاني ربي في أحسن صورة ، الحديث . سابعها : وحي إسرافيل ، فقد ثبت بالطرق الصحاح كما في مسند أحمد : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوة ، وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن ، فلما مضت ثلاث سنين ، قرن بنبوته جبريل عليه السلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة : عشرأ بمكة ، وعشرأ بالمدينة ، فأت وهو ابن ثلاث وستين سنة . »

وذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه على ستة وأربعين نوعاً ، وغالبها من صفات حامل الوحي ، ومجموعها يدخل فيما ذكر من الصور السابقة .

وحي القرآن كله ، كان بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي تواترت الأخبار من لدن النبي عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا أنه الملك الذي كان يحمل الوحي ، وينزل بالقرآن على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأغلب ما كان يأتيه به على ضربين : أحدهما أنه كان يأتيه به ، فيلقيه عليه كما يلقى الرجل على الرجل ، والثاني أنه كان يأتيه به في مثل صوت الجرس : فأما وحي إسرافيل ، فإنه لم ينزل عليه فيه شيء من القرآن ، والإلقاء في الروع راجع إلى الصلصلة : والتكليم ليلة الإسراء ، كان بلا واسطة : ورؤيته له في صورته التي خلق عليها لم تقع إلا مرتين : مرة عند ما طلب منه ذلك ، والآخرى عند المعراج .

وأما في النوم ، فإن القرآن كله قد نزل في اليقظة ، ولم ينزل منه في النوم شيء ، وذاعب بعضهم إلى أن فيه ما نزل في النوم ، واستدل على ذلك بما روى مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم بين أظهرنا

في المسجد ، إذ أغنى لإغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ ، فقال : أنزلت على آتفا سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك السكوتر ، فصل لربك واحمر ، إن شائتك هو الأبر ، ، وقد رد على ذلك الرافعي في أماليه ، فقال : هم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة ، وقالوا : من الوحي ما يأتيه في النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحى ، قال : وهذا صحيح ، ولكن الأشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، وكأنه خطر له في النوم سورة السكوتر المنزلة في اليقظة ، أو عرض عليه السكوتر الذي وردت فيه السورة ، أو تكون تلك الإغفاءة ليست لإغفاءة نوم ، بل الحالة التي كانت تمر به عند نزول الوحي ، وتسمى برحاء الوحي ، قال السيوطي : والذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه ، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه .

فمن هذا كله تبين الحالة التي كان ينزل فيها جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه يعلم أنها تمكاد تنحصر في كيفيتين : في الإتيان له في مثل صامحة الجرس ، وهذه يدخل فيها دوى النحل وغيره مما يقاربه من الكيفيات ، وفي التمثل له بصورة رجل كدحية بن خليفة السكبي ، والأعرابي وغيرهما .

وهذا كله في نزول جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما نزول القرآن على جبريل ، وتلقيه له ، فهذا من أنباء الشيب التي لم ترد فيها نصوص ، ولم تعرف لها كيفية ، وكل ما هنالك اقوال للعلماء والباحثين يصح الاستئناس بها ، والاسترشاد بما فيها .

قال الطيبي : ولعل نزول القرآن على الملك أن يتلقاه تلقفا روحانيا ، أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيلقيه إليه .

وقال البيهقي في معنى قوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة القدر ، : يريد - والله أعلم - إنا أسمعنا الملك ، وأفهمناه إياه ، وأنزلناه بما سمع .

وقال الغزالي : وسماع الملك وغيره الوحي من الله تعالى بغير واسطة ، يستحيل أن يكون بحرف أو صوت ، لكن يكون بخلق الله تعالى للسامع علما

ضروريا بثلاثة أمور : بالمتكلم ، وبأن ما سمعه كلامه ، وبمراده من كلامه ، والقدرة الازلية لا تقصر عن اضطرار الملك وغيره إلى العلم بذلك ، وكأن كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر ، فسماعه الذى يخلقه لعبده ، ليس من جنس سماع الأصوات .

وحكى القرافى خلافاً للعلماء فى ابتداء الوحي ، وهل كان جبريل ينقل له ملك عن الله عز وجل ، أو يخاق له علم ضرورى بأن الله تعالى طلب منه أن يأتي محمداً أو غيره من الأنبياء بسورة كذا ، أو خلق له علماً ضرورياً بأن يأتي اللوح المحفوظ ، فينقل منه كذا .

وللقرآن نزول آخر غير هذا ، وهو نزوله إلى اللوح المحفوظ ، ونزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا : فأما الاول ، فيشير إليه قوله تعالى : « بل در قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ، ولكن طريقة نزوله إلى اللوح ، وكيفية وجوده فيه ، ووقته ، كل هذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

وأما الثانى ، فقد اختلف فيه على أقوال كثيرة ، أشهرها وأصحها أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجماً فى عشرين سنة ، أو فى ثلاث وعشرين ، أو فى خمس وعشرين على حسب الاختلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ، ويشير إلى هذا القول قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » وقوله « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، وقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وتؤيده الأخبار الصحيحة الواردة فى ذلك ، والمنقولة عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « فصل القرآن فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم » وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر » ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه فى إثر بعض ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا » ونزله جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بجواب كلام العباد وأعمالهم ، إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة ، والأخبار الصحيحة .

وقيل : إنه نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة ، أو في ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة ، أو في خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة في كل ليلة ما يقدر الله تعالى إنزاله في كل السنة ، ثم نزل بعد ذلك منجما في جميع السنة .

وقيل : إنه ابتدئ نزوله في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة من سائر الأوقات .

والذي يدل عليه استقرار الأحاديث أن القرآن كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا بحسب الحاجة ، وأنه كان ينزل بعض آية ، وآية ، وآيتين ، وثلاثا وأربعا ، وخمسا ، وعشرا ، وأكثر من ذلك . والسري في نزوله منجما تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه بكثرة نزول الملك إليه ، وتجدد العهد به ، أو تيسير حفظه عليه ، لأنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق نزوله عليه ، ليسهل حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإنهم كانوا قارئين وكاتبين ، فيسهل عليهم حفظ الجميع إذا نزل عليهم جملة ، أو لأن القرآن منه الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار على قول قيل ، أو فعل فعل ، وكل هذا يقتضي أن ينزل مفرقا لا جملة .

واختلف في حقيقة المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، والحق أنه اللفظ والمعنى جميعا ، وأن جبريل وهى القرآن من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به على النبي صلى الله عليه وسلم .

وزعم بعض الناس أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عبر عنها بلغة العرب ، وزعم آخرون أن الله تعالى أوحى إلى جبريل بالمعنى فقط ، وأنه هو قد صاغه بلغة العرب في تلك الألفاظ المخصوصة ، ثم نزل به كذلك بعد ذلك . والظاهر أن هذين الزعمين بعيدان عن الحقيقة ، لأنهما يفتحان باب النقول على القرآن الكريم ، ويسهلان إثارة الشكوك حوله ، وينافيان إعجازه الذي يقوم على اتحاد اللفظ والمعنى في نزولهما معا من عند الله تعالى .

نزل القرآن

٢٠٩

وقد قسم العلامة الجويني كلام الله المنزل إلى قسمين : قسم يجوز أدائه بالمعنى ، وقسم لا يجوز أن يغير منه كلمة ولا حرف ، وقال السيوطي تعليقا على تقسيم الجويني : القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السنة ، فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جازت رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى ، ولم تجز رواية القرآن بالمعنى ، لأن جبريل أداها باللفظ ، ولم يبح له أدائه بالمعنى ، والسرف في ذلك راجع إلى أن المقصود منه التبعيد بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة ، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه — إلى أن قال : وقد رأيت عن السلف ما يعضد كلام الجويني .

ولا خلاف في أن الليلة التي ابتداء فيها نزول القرآن هي ليلة القدر ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وفي أن هذه الليلة كانت في شهر رمضان كما قال تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، وهو الشهر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف فيه بغار حراء ويصومه ، حيث جاءه جبريل وعرض عليه أن يقرأ ، فقال له : ما أنا بقارئ ، فأخذه وضمه إليه ضمما شديدا ، حتى كان له غطيظ يشبه صوته صوت المحدث ، فلما بلغ ذلك منه غاية التعب والمشقة أطلقه ثم فعل ذلك معه ثلاث مرات ، وفي الثالثة قال له : « اقرأ باسم ربك ، الآيات » .

وأما تعيين الليلة التي ابتداء فيها نزول القرآن ، فقد وقع فيها اختلاف كثير ، والجمهور من العلماء على أنها في أواخر العشر الأخير من رمضان ، وروى ابن سعد وغيره أن نزول الملك عليه بحراء ، كان يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة إحدى وأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، ويميل إلى هذا الأخير بعض أصحاب السير والمؤرخين .

كلمتان

أفضله الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أخلاق

صدق الشاعر إذ يقول : « وإنما الأمم الأخلاق ... » ، فإنه مما لا يجوز أن يشك فيه أن قوام الأمم الأخلاق ، فإن تخلت عنها أصبحت ولا عاصم لها من الضياع والهدم . وهل أدل على هذا مما وقع ويقع تحت أسماعنا وأبصارنا من أمم تنهار ، وأخرى لا يزيد لها الزمن وما يجيء به من بلاء إلا قوة ، ولا الشدائد التي يطير لها قلب الشجعان إلا استمساكا ومنعة ! ومرجع هذا ضياع الأخلاق في الأولى ، ونأصلها وقوتها في الأخرى . هذا الحق لا يحتاج لدليل فوق دليل الواقع ، وهو يصدق على الأفراد والجماعات الصغيرة ، كما يصدق على الجماعات الكبيرة والأمم ، وكما يصدق كذلك على دور العلم وما إليها من المعاهد والمؤسسات المختلفة . إن نقيصة خلقية واحدة قد تكون سبباً قوياً في فساد الأمر وشقاء كثير من الناس .

ولتمثل لذلك بالكذب ، وبالكذب يقترفه كبير من يجب عليهم بحكم عملهم وتربيتهم وثقافتهم أن يتزهدوا عنه ، ويصدر عنه بسهولة ويُسر كما يصدر الصدق عن الصادق ، بل ربما وجد ذلك سائغاً لذيذاً !

تجتمع وبعض الإخوان والملازمين من الأمور العامة ، ويكون الغرض من هذا الاجتماع الصالح العام ، ويتحدث بعض المجتمعين في إخلاص وصدق مبينين هذا الصالح ومشيرين للوسائل الطيبة التي توصل إليه ، ثم ينتهي الاجتماع والكل مستبشر بما تم ووائق من نجاح القصد . وما هو إلا قليل حتى يتبين

للقائمين بهذا الاجتماع أن ما كان فيه قد تبرع بعض الإخوان بنقله محرراً مبدلاً
تقرباً منه إلى الرؤساء ، دون أن يدري كبر ما تولى وإثم ما اقترف ودون أن
يعلم أن ما نقل كاذباً سيئين سريماً كذبه ، وأن العاقبة ستكون حتماً سيئة له وللصالح
العام الذي كان يقصده الجميع !

ومثال آخر : يكون لك عند هذا الموظف الكبير أمر هو من عمله بحكم
منصبه ، فنذهب إليه معتقداً أن الأمر سهل لا عسر فيه ، وأنت بين أمرين
في كل منهما رضى : إما نعم ، مشمرة ، وإما لا ، مريجة . يتلقاك هذا الرجل
بأهلا وسهلاً ، ويعمدك ويسرف في الوعد بإجابة ما ترجو ، حتى تخرج معتقداً
أن ما ترجو صار على طرف الثمام أو حبل الذراع كما يقولون ، وتمر الأيام وأنت
دائب السعى وهو دائب التوكيد لما وعد ، ملتصقا كل مرة تعلة من الإنجاز
تقبلها وأنت راضٍ معتقداً أنه صادق كما يكون الرجال . حتى إذا جدد الجد ،
وحان آخر أجل ضربه لقضاء ما ألحقت فيه من أمر ، فرأى منك وأنتكر ما وعد ؛
فإذا بما كنت تعتقد من أمر مقتضى صار معضلاً ، وإذا بمصالح تضيق عليك
كان من الواجب ألا تضيق !

أيها الكاذب ، أيها الإنسان صورة لاحقيقة ! ليس الكذب إلا جرأة على
الله وخوفاً من العبد . إنما يكذب المجرم خوف العقوبة ، ويكذب الخادم خوف
السيد ، وقد يكون لهذين وأمثالهما من الجهل عذر في الجرأة على الله مالك الأمر
كله ، والخوف من العبد الذى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً . ولكن
ما عذرك أنت في نقل ما لم يكن ، وفي تحريف الكلام عن مواضعه ، وفي استسهال
الكذب واستعذابه ! أنقوم أمة وأمثال هذا الرجل ، تجوزا ، كثيرون فيها ،
بل ومن يسمع لهم !

رحم الله ابن السماك إذ كان يرى أن الكذب مما لا يتفق مع الأنفة والمروءة
حتى ليخشى ألا يؤجر على تركه . ولعمري لقد صدق ابن السماك ! فالكذب يجب
أن يترك أنفة لأنه لا يلائم القطرة الى لم يلحقها لؤم ولا دنس . ولذلك حرمة
الاديان كلها ، بل حرمة الحكماء وإن كانوا وثنيين لم بأنهم نبي أو رسول .

من الرجولة :

الرجولة وأعنى بها احترام المرء لنفسه وتقدير ما منحه الله له من نعمة الحرية في الإرادة ، فلا يسخر نفسه لغيره تسخيراً يذهب بالكرامة والخلق ويجانب المروءة ، ولا يجعل نفسه عبداً لهذا ، وظلاً لذلك بزول بزواله ، حتى كأنه لا يعرف لنفسه وجوداً مستقلاً كإنسان ورجل ! الرجولة بهذا الفهم أمر يسير كل اليسر تارة ، وعسير كل العسر تارة أخرى . يسير على من يرى أن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً فلا يصح ولا يحمل أن يعبدوا عبيداً ، ومن يعتقد أن الله مالك الأمر كله ، فهو يعطى ويمنع متى شاء وحده دون أن يكون لأحد من خلقه أمر من الأمور معه . وهي أمر عسير إلى أقصى حدود العسر على من عدت ثقته بالله أو ضعفه ، فهو يرى أن الرزق والنعمة أمور يملكها ذوو الجاه وأصحاب السلطان وحدهم ، يتصرفون فيها كما يريدون بالبسط والإمساك فهو لهذا يبحث عن سيد يملكه نفسه ويتنازل له عن رجولته في سبيل ما ينال منه .

والأمة لا تعظم بالملايين التي تضمها من الناس الذين يغدون ويروحون ، بل بما تضم من الرجال وإن كانوا قلة من الناحية العددية .

ليس برجل من لا يستطيع أن يقول : لا ، إذا سيم خطه خسف ! ليس نرجل من إذا ضمه مجلس لكبير من الناس قعد منه مزجر المكاب وجعل نفسه بوقاً له يردد ما يقول ويؤمن بما يحدث ويتابع ما يرى ! ليس برجل من يكون مصداق الشاعر الذي يقول :

يوما يمان إذا لاقيت ذا عين وإن لقيت معديا فعدنانى

ليس برجل من يقبل عليك مع الدنيا حين تقبل ويدبر عنك معها حين تدبر ، ويناوئك لأن الرئيس تحدى عليك غضباناً !

إنما الرجل من آمن بالله وأنه الضار والنافع ، وخالط هذا الإيمان قلبه وروحه ، فهو يصدع بالحق وإن هدد بالويل والثبور . إنما الرجل من عرف حقاً أن الدنيا عرض زائل فاحتفظ برجولته وكرامته ، ولم يرض لنفسه أن تلم هذه

الكرامة ولو كان البذل الدنيا بأسرها . إنما الرجل من ينصح لأمته وأولى الأمر فيها إن تفاق لهم أشباه الرجال الذين يدورون مع الريح ويغيرون ما سبق أن اعتقدوا من آراء كما يغير المرء قميصه وجابابه إن غدا لا يتفق مع البدع !

مثل الرجولة كثيرة يزخر بها التاريخ أيام عز الإسلام ومجده . ومن فضول القول أن نذكر من هذه المثل ما كان من عمر الفاروق وقد أزمع الهجرة بدينه من مكة ، ومراجعته للرسول الذي لا ينطق عن الهوى في أمور نزل القرآن في بعضها - وبدأ لرأيه ، ونحو هذا مما حفظ التاريخ لكثير من الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم ، واسكني أكتفى من ذلك بمثال واحد فيه رجولة مكتملة .

هذا المثال تراه في محاولة الهادي الخليفة العباسي خلع هارون الرشيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه جعفر ، لقد جلس الهادي ، لما صححت منه العزيمة على هذه الفعلة للناس ، وشرع في أخذ البيعة لابنه جعفر وخلع الرشيد ، فبايع مشيخة العرب والقواد ، ثم جيء بالفائد هرثمة بن أعين ليبايع فأبى وقال : « إن يميني مشغولة ببيعة أمير المؤمنين ، وشمالى مشغولة ببيعة هارون ، فأبايع بماذا ؟ » فأجاب الهادي بقوله : « تخلع هارون وتبايع جعفرأ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! أنا رجل أدين بنصيحتك ونصيحة الأئمة منكم أهل البيت ، وبالله لو تخوفت أن تحرقنى على صدقى إياك بالنار لما حجزنى ذلك عن صدقك ! إن البيعة يا أمير المؤمنين إنما هى إيمان ، وقد حلفت هارون بمثل ما تستحلفنى به لجعفر ، وإن خلعت اليوم هارون خلعت جعفرأ غداً ! »

هنا استشاط الهادي غضباً ، وأمر بوجىء عنق هرثمة ، ثم تاب لرشده واكتفى بإسقاطه من قيادته وإخراجه ملوماً مدحوراً . وأخيراً ، وجم الهادي ساعة لا يأمر ولا ينهى ، ثم رفع رأسه وأمر برده وقال له : « يا حائك ! يبايع أهل بيت أمير المؤمنين وفيهم عم جده وعم أبيه وعمومته وإخوته وسائر لحمته ، ويبايع وجوه العرب والموالى والقواد ، وتمسك أنت عن البيعة ! » فقال هرثمة : « يا أمير المؤمنين ! وما حاجتك إلى بيعة الحائك بعد بيعة من ذكرت من أعيان

الناس ! ألا إن الأمر على ما بايعت لك : إنه لا يخلع اليوم أحد هارون ويبقى في غد الجعفر ! . .

قال القاضي فوزي راوي هذا الحديث : فالتفت الهادي إلى من حضر مجلسه ، وقال لهم : ، شامت الوجوه ! صدق والله هرثمة ، ورر وغدرتم ! ، ثم أمر هرثمة بخمسين ألف درهم وأقطعه أرضاً واسعة .

أرأيت هذه الرجولة السكاملة واعتزاز هرثمة ! يرفض في عزم ثابت إرادة الخليفة وهو الحاكم المطلق حين ذاك في أمر أجمع هاليه كبار الدولة ، ويحاج في قوة عن رأيه رغم تهديده بالقتل ، ويصمم على ما يرى حتى يظفر بالغلبة والنصر ويعرف الخليفة له سداد الرأي وصدق الرجولة وكامل الوفاء ، فلا يخرج من حضرته إلا عزيزاً كريماً منصوراً متباباً !

أين هذا مما عليه كثير من كبرائنا وساداتنا بحكم مناصبهم ومراكزهم الذين فتنوا الناس في أخلاقهم ودينهم وأصلوهم السبيل ، إذ قلدوهم في شعارهم وهو الميل مع الريح حيث تميل !

مثل هذا الموقف العظيم لا يقفه إلا رجل يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويؤمن برجولته نعمة من الله يجب رعايتها ، ويؤمن بأن الخلق جميعاً لا يستطيعون أن ينفعوا أو يضرُوا أحداً بما لم يردده الله وإن كان بعضهم لبعض ظهيراً . وبهذا الخلق وأمثاله تعتز الأمة ويشيع الخير فيها ، بنقايد الصغير للكبير والعامه للسادة .

أما نحن فوا أسفاه ، لا يحتاج الرئيس بله الحاكم ، لإعداد بعض من تحت رياسته أو تهديده ليطيع فيما يريد ، بل يكفي أن يستشف بعض هؤلاء الذين لهم صور الرجال دون حقائقها رغبة الرئيس ، فيسارع إلى تحقيق ما يريد ، لا برعى في ذلك إلا ولا ذمة ولا كرامة !

وبعد ، فإنا نتوجه إلى الله الذي لا أحد لقدرته أن يغير ما بأنفسنا ، وأن يجعلنا رجالاً تعتز بهم الأمة العربية والإسلام ؟

ذكرى المولد الشريف

موشحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يا خجلنا من بياض شدي تشوه وجهي لدى الغواني ؛
فلا دموعي ، ولا نسبي ولا ولوعي ، ولا هواني

أف لهذا المشيب يحور أجمل ما خطه الشباب
يتغني الفتي غفوة ويصحو إذا زمان الصبا سراب
روض زها نبته ، وصبح يعقبه الجذب والضياب

° ° °

يا لك من طارق غريب عن الهوى والصفاء لواني
أحيابه عيشة الحبيب بلا خيال ، ولا أمانى

° ° °

بالهف نفسي على شباب من المنى والحياة أحلى
الظرف ، والقصف ، والتصابي يوم تولى الشباب ولى
عوجوا على ربه ركابي أحط من ذى الهموم ثغلا

° ° °

أُسَبِّحُ في أفقه الرحيب وأنشَقُ الشُّرْبَ في المغاني
وأملأ الجو بالنحيب أسي وحزنا على زمان

من لي بأن استرد عهداً شربته في الكؤوس خمرآ ؟
مضى ، وأهسدي إلى وجداً حسبه في القواد جمرآ
كان زمان الشباب سعدا فعاد بعد المشيب ذكرى !

يانفس ، قدآن أن تؤوب عجلي ، إلى شاطئه الأمان
وفي حمى المصطفى الحبيب تلقين ماشئت من ضمان

ميلاده الباهر المجيد نال به الكون ما تمنى
بنوره أشرق الوجود وهز أعطافه ، فغنى !
أقر عين العنلا وليد قر به الكون واطمأنا !

تهفو بحاليه بالقلوب كما هفت بالنهى المشاني
تضم ذكراه في وجيب وفي جلال ، وفي حنان

يا قوم ، من شام مثل طه قد أنبت العلم في الصحارى ؟
أمية عيش في همداه وشرعة أنقذت حيارى
لاقى بها خصمه وجادا خبار في أمره ومارى

من أين للكفر والصليب بواهر الوحي والقرآن ؟
أولاك يروون عن غيوب وذا يلقاه عن عيان

دعا ، فأحيا القلوب غلفاً وسار والسعد في الركاب

وأوسع العالمين عطفاً في الحكم والسلم والغلاب
لم يملأ الخافقين خوفاً فتلك في شرعة الذئاب

° ° °

من كل خيانة مريب يختص بالعطف كل جان
أو غادر فاجر لم يوب يكسب بالعرض كالزواني

° ° °

قولوا لصهيون : ما لموسى يروع الآفسات قتلاً ؟
وللصليبي : ما لعيسى يملأ هذا الوجود ختلاً ؟
تعماً لأعلامكم ، ونكساً أما نبيكأما ، فجلاً
لم يدعوا في الورى الحوب ولا لغدر ، ولا اختيال
ولا أغارا على الشعوب بكل مسترزق جبان

° ° °

سنعمر الكون من جديد بدین خير الامام طه
بالجند ، خفاقة البنود تلك اعلام من رماها
البدم في المشرق السعيد يبيع ، والغرب منتهاها

° ° °

ونحن في أمسنا القريب سرنا على هامة الزمان
في الهدى ، في السلم ، في الحروب في الحكم ، في العلم ، في البيان

° ° °

مجده مضى في الزمان حرأ وعز في ظله الانائم
عهد ، لياليه كتن غراً قد ساد من بعده الظلام
ياسيد المصلحين طراً - عليك من ربك السلام -

° ° °

اعطف على بائس أديب مروع في الحياة عاب
قل لي - إذا خفت من ذنوبي - لا تبئس ، أنت في ضمان

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

زرتك أمس الأول ، وقدم محمد أول أمس
يتردد مثل هذا كثيراً ، ويعنى بأمس الأول وأول أمس اليوم الذي قبل
أمس ، وهو اليوم الذي قبل يومك . فنقول : حدث هذا الأمر أمس الأول
أو أول أمس إذا حدث لبومين خلوا من اليوم الذي نتحدث فيه . وفي صحيفة
المصري الصادرة في يوم ١٩٥٠/١١/٢٧ : . وكنا قد أشرنا أول أمس إلى عزم
الولايات المتحدة على التوسط لتسوية الخلاف القائم بينهما .

والاستعمال العربي الفصيح في هذا أن يقال : زرتك أول من أمس ، أى في يوم
أسبق من أمس ، وهو اليوم الذي يسبق اليوم الذي قبل يومك ، وفي مثال صحيفة
المصري السابق ، وكنا قد أشرنا أول من أمس ، وهكذا . فهذا الذي ينبغي أن
يجرى عليه الناس ونقلاً لما أثر عن العرب . فقد جاء في اللسان في (أمس) :
وابن السكيت : تقول : ما رأيته منذ أمس : فإن لم تره يوماً قبل ذلك قلت :
ما رأيته منذ أول من أمس .

وإذا رأيت محمداً لثلاثة أيام خلون قلت : رأيت محمداً منذ أول من أول من
أمس ، ولا تجاوز العرب في أمس ذلك : قال في اللسان في (وأل) : . تقول :
ما رأيته منذ أمس : فإن لم تره يوماً قبل أمس قلت : ما رأيته منذ أول من أمس :
فإن لم تره مذ يومين قبل أمس قلت : ما رأيته منذ أول من أول من أمس ، ولم
تجاوز ذلك .

وفي فصح ثعلب (باب حروف منفردة) : . وتقول : ما رأيته منذ أول
من أمس : فإن أردت يومين قبل ذلك قلت : ما رأيته منذ أول من أول من أمس ،
ولا تجاوز ذلك ، وقال شارحه الهروي : . أى لا يقال إلا ليومين قبل أمس .
وأمس هو اسم لليوم الذي قبل يومك .

ولم أر عبارة "أمس الأول"، فيما وقفت عليه، فأنا "أول أمس"، فقد جاءت في سينية البحتري، ويبنى به بدء "أمس وبكرته". قال البحتري:

وكان الوفود ضاحين - حمرى من وقوف خلف الزحام وخفس
وكان القيمان وسط المناس يريرن بين حوّل ولعس
وكان اللقاء أول من أم س ووشك الفراق أول أمس

فهو يقول: "كان اللقاء كان في اليوم السابق أمس"، وتراه قال فيه: "أول من أمس لا أمس الأول"، ويقول: "كان الفراق كان بعد يوم اللقاء فكان أمس فما أسرع الفراق بعد التلاق"، وقد جعل الفراق في غدوة أمس ليكون أقرب إلى يوم التلاق إذ لم يكن في آخر أمس. وحسبك بكلام البحتري هذا مقنعا في أن تعدل عن استعمال "أول أمس"، حيث يجب أن يوضع "أول من أمس".

الماجريات

تجرى هذه اللفظة "الماجريات"، كثيرا: ويراد بها الحوادث الجارية، وهي من الألفاظ المولدة التي دخلت في عداد ما يتكلم به الناس، وجاوزت لغة العامة إلى لغة الخاصة. ففي صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٥١ العنوان الآتي: "الباب السادس ما يكتب في الحوادث والماجريات"، وأصل تأليف هذه الكلمة هو الموصول وصلته "ماجرى"، أي الذي جرى وحدث، فتوهم أن ذلك كلمة مفردة فعوملت معاملة الكلمات المفردة، وأدخلت عليها أداة التعريفات وجمعت فقيل: "الماجريات"، ومثلها في هذا مثل الماصدقات في اصطلاح المناطقة، ومعنى الماصدقات الجزئيات والأفراد التي يصدق عليها الكلى ويتحقق فيها، فصاصدقات الإنسان زيد وعمرو وخالد ومن جرى هذا المجرى في تحقق حد الإنسان فيه، وقد قال الصبان في حواشيه على شرح الملوى للسلم في المنطق في مبحث الذاتى والعرضى (فصل في مباحث دلالة الألفاظ): "ما صدق الشيء: أفرادة التي يصدق هو عليها أى يحمل، وهو اسم مركب من ما الموصولة وصلتها".

وترى من هذا أن واحد الماجريات هو "ماجرى"، على حد ما قيل في واحد الماصدقات، وإن كانوا لا ينظنون بواحد الماجريات.

دلى أن صاحب صبح الأعشى يجعل واحد الماجريات « ماجرية » ، فقد قال تحت الترجمة السابقة : « ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع ، فإذا وقعت للأديب ماجرية وأراد الكتابة بها إلى بعض إخوانه حكى له تلك الماجرية في كلامه ؛ مع تنميق الكلام في ذلك إما ابتداء ، وإما جواباً . »

وقد رأيت أن هذا لا يتفق مع أصل تأليفها . ولو صح ما قاله صاحب صبح الأعشى في واحدما وأنه « ماجرية » ، لما صح تصحيح الياء وإقرارها : إذ أن القانون الصرفي يوجب قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فكان يجب يقال فيها : « الماجرة » .

وصاحب صبح الأعشى هو أبو العباس أحمد بن علي الفلقشندي ، وكان يعيش في مصر في القرن الثامن الهجري ، وتولى ديوان الإنشاء ، وكانت وفاته سنة ٨٢١ كما في الضوء اللامع للسخاوي . وقد سقت تاريخ وفاته ليعلم أولية الكلمة التي هي موضوع البحث ، وهي « الماجريات » ، وأنها تضرب بعرق في القدم . ومن الجلي بعد هذا أني لا أريد إقرار الكلمة التي أبحث فيها ولا تصويبها : إذ كانت نائية عن منهاج تأليف الكلمات العربية ، فمن الخير تنسكها والعدول عنها . والله الموفق للصواب .

زينب الصباغ — الذرة الشامى

١ — يجرى الأسلوب الأول : « زينب الصباغ » ، في هذه الأيام : يعملون « الصباغ » ، وما جرى مجراه لقباً للأسرة لا يتغير ويلزم حالة واحدة ، فيقال : خالد البناء ، وفاطمة البناء ، وهكذا دون تفريق في ذلك بين حالتي التذكير والتأنيث وقد أخبرني ذو علم باللغات الغربية الحية أن القوم في اسم الأسرة فريقان : فريق يرى جود هذا الاسم فلا يختلف في تذكير ولا تأنيث ؛ وهم الذين يتكلمون اللغات الجرمانية (الانكليزية والالمانية) ، والذين يتكلمون اللغات اللاتينية (الفرنسية والإيطالية والأسبانية) . وفريق يرى التفريق فيه بين حالتي التذكير والتأنيث فيلحق اللقب إذا كان جارياً على المؤنث علم التأنيث عندهم ، وهم الذين يتكلمون اللغات السلافية ، ومنهم أمم الروس .

وسنة العرب في ذلك أن الصباغ مثلا يكون لمن يتعاطى هذه الحرفة ، فإذا شهر بها كان ذلك لقباً له ، وقيل : فلان الصباغ ليشير عن يشاركه في اسمه وليس بصباغ .

فإذا كان له ولد مثلاً وأريد نسبته إليه قيل : خالد الصباغي وفاطمة الصباغية بأداة النسب . وقد كان في الأنصار قطان مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام بنو عدي بن النجار ، فكان يقال لمن ينسب إليهم النجارى النجارية : وفي الروض^(١) الأنف للسجيل في حديث زواج هاشم بن عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر نكاح هاشم سلمى بنت عمرو النجارية .

فترى أن أهل عصرنا استنوا سنة فريق من الغربيين في لقب الأسرة ، فلا يقرقون فيه بين تذكير وتأنيث ، وتكتبوا سنة العرب .

وقد جاء في صحيفة الرسالة العدد (٦٨٦) مقال عزوردة اليازجية ، جعل الكاتب عنوانه «وردة اليازجي» ، واليازجي كلمة تركية معناها الكاتب ، وقد جرت حيناً من الدهر على ألسنة الناس لاسيما في بلاد الشام على عهد الحكم التركي ، وعولمت معاملة المفردات العربية ، وصارت لقباً لأسرة اشتغل أهلها بالأدب ، وكان لهم عليه فضل عظيم ، منهم ناصيف اليازجي وإبراهيم اليازجي . والمتبادر في العبارة السابقة أن يكون «اليازجي» وصفاً لوردة فيكون مما نتحدث فيه ، ويكون هذا من الكاتب جرياً على المؤلف في هذه الأيام . وقد يجوز أن يقرأ «وردة اليازجي» بجر ، اليازجي ، بالإضافة ، أى وردة المنسوبة إلى اليازجي فلا يكون مما نحن فيه ، ولكن هذا خلاف المنبار .

٢ - وتجري العبارة الثانية : «الذرة الشامى» كثيراً على ألسنة الناس ، والذرة فيها علم التأنيث ، فالواجب أن يقال : الذرة الشامية ، واست أدري مأنى هذا الزيف عن الصواب ولا مرده . وقد يخرج هذا على تأويل الذرة بالنبت ، ولكن مثل هذا التخرج ياجأ إليه فيما سمع من العرب ، كما قال بعضهم : إن فلانا رجل لغوب أته كتابي فاحتقرها ، فأنت الكتاب لما ذهب به مذهب الرسالة .

كيف تقارب الشعوب

منهج الاسلام في ذلك

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المرغني

يحاول السياسة وقادة الفكر في الأمم التقريب بين الشعوب وإزالة الحواجز السياسية التي أقامتها الأطماع والآهواء، على مدى الأجيال بعد أن تكفلت الحضارة المادية بإزالة الحواجز الطبيعية من بحار وأنهار وجبال وصحارى ووديان، وأعني بالحواجز السياسية هذه الحدود الوهمية من خطوط الطول وخطوط العرض وهذه الفروق الاعتبارية من جنسية وقومية وعصبية للألوان والثقافات.

وهدف هؤلاء القضاء على أسباب الحروب والتطاحن في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، ثم الوصول بالشعوب إلى حياة ناعمة في ظلال الأمن والسلام ولا يسع كل محب للسلام إلا أن يبارك هذه الجهود ويبدل من نفسه وماله ما يفضى إلى هذه الغاية، كما لا يسع كل منصف إلا أن يقدر لهؤلاء جهودهم فيها.

غير أنه رغم ما يبذل في هذا السبيل من جهود وما يجمع لها من جموع فإن التقدم لا يزال بطيئاً ولا يزال الهدف بعيداً والطريق وعراً، وأكبر الظن أنهم لن يبلغوا الهدف، وأن جهودهم ستبوء بالفشل.

ذلك أن الدعوة إلى هذه الغاية يعوزها الوسائل الصحيحة والعناصر القوية لانجاح الدعوات والبلوغ إلى الأهداف، ومن أهم هذه العناصر الاخلاص لها والتطبيق العملي من القائمين عليها، وإنا نشك كل الشك في توافر هذين العنصرين في الدعاة إليها، ودعواتهم في الواقع ما هي إلا سلسلة من الاتحادات السياسية

كيف تتقارب الشعوب

٢٢٣

تبعث عليها مناسبات خاصة مداهنة للجماعات والأمم الصغيرة تخديراً لوعيتها
الانسانى واحتفاظاً بها أن تسير في الطريق التي رسم لها، وآية ذلك أنه إذا قيل
لهؤلاء الدعاة تعالوا إلى تطبيق مبادئكم وأعطوا الشعوب حقوقها السياسية
والاجتماعية وامنحوها حرياتنا وأشعروها بهذه المساواة، لتسكن نفوسها إلى
ماندعوها إليه وتطمئن قلوبها إلى صدق نياتكم فيها، لم تحل منهم بطائل وأجابوك
بمعسول من القول لا يغنى عن الواقع شيئاً.

ولو أنهم أخلصوا في القصد وصدقوا في العزم لصدقت أقوالهم أفعالهم
وكانت القدوة بأعمالهم أبعد أثراً وأعظم نجاحاً، وشاهدنا التاريخ على ما نقول
محمد صلى الله عليه وسلم الداعي الإسلامى الأول والمصلح الانسانى الفذ، فلقد كان
مثلاً أعلى في صدق عزمته وإخلاص دعوته، فأصاب هدفه وبلغ غايته وربط بين
الامة الإسلامية بروابط جعلها أمة واحدة متماسكة الأجزاء وثيقة البليان موحدة
المقاصد بعد أن كانت أوزاعاً متنافرة من القبائل والشعوب وغدا المؤمن الاسيوى
أخاً للمؤمن الأفريقى والأوروبى والمؤمن الحبشى أخاً للمؤمن العربى أخوة صادقة
عميقة لا تشوبها مظاهر النفاق والرياء، نحنا صلى الله عليه وسلم منحنى غريباً ووضع
نظاماً رائعاً في جملته وتفصيله ومن للجماعات والأفراد حقوقاً وواجبات على
أساس من الشورى والعدل والمساواة والتعاطف والمحبة والتناصح في عمل
الحخير وتجنب الأذى، وعلى أساس من الرضا والقناعة واحترام حقوق الغير
فألغى الفوارق بين الطبقات أمام القانون وحرم التنابد بالمعصيات والتباهى
بالانساب وأوصى بالمرأة والضعيف، والمسكين واللميف وحرم الشفاعة في
حدرود الله وحذر من سوء الظن والتجسس وتبجيع العورات، ومن وصايا العامة
في القرآن :

وأمرهم شورى بينهم . إن الله يأمر بالعدل والإحسان، . إنما المؤمنون
إخوة فأصلحوا بين أخويكم، . وقاتلوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان، . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً
منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلبسوا أنفسكم ولا تنابزوا

بالألقاب بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ، ، يأبى الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، ، ، يأبى الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ، .

ومن الوصايا العامة في السنة : ، الفاس سواسية كأسيان المشط ، ، لا فضل لعربي ولا عجمي إلا بالتقوى ، ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ، المؤمنون متكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدانهم وهم بيد على من سواهم ، ، كل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه . لا شفاعة في حد من حدود الله . من نفس من مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ، .

وإن تعجب لشيء فاعجب لهذا التفصيل الذي تناولت به التعاليم الحميدة ، حياة الإنسان كفرد في سائر أحواله فقد تناولته عزباً وزوجاً ، وقريباً وبعيداً ، وحاكماً ومحكوماً ، وغنياً وفقيراً ، وعاملاً وعاطلاً ، وعالمياً وجاهلاً ، وتناولت شؤنه في مطعمه وملبسه ، وحديثه ومجتمعه ، وزيارته وساسته في جميع أحواله ورسمت له طرائق العمل في صور أحكام ذات ألوان ، وفرضت بعضها وسنت بعضها ، وندبت إلى بعض ، وأرشدت إلى أخلاق وآداب هي الغاية فيما وصلت إليه المدنية من خلق وذوق وأدب ، ووضعت بهذا أمتن الأسس في بناء المجتمع الإنساني تجهود عقول الفلاسفة ، وتقف منها في أول الطريق .

وكانت أفعاله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً عملياً لأقواله وتعاليمه ، فإذا دعا إلى الشورى صرب المثل بنفسه ، فقد استشار بعض أصحابه في حوادث ونزل على رأيهم حيث بدا له وجه الخير فيها ، وإذا دعا إلى المساواة كان كذلك ، روى عنه أنه أقبل على بعض أصحابه يوماً فقاموا له إجلالاً فقال عليه السلام : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس ، وإذا دعا إلى التعاون فهو في تعاون المثل الأسى ، روى أنه كان ذات يوم في سفر فأمر أصحابه بأصلاح شاة ، فقال رجل على ذبحها ، وقال ثان على

كيف تتقارب الشعوب

٢٢٥

سأخبرها ، وقال ثالث على طبقها ، فقال الرسول صلى الله عليه : وعلى جمع الخطب فقالوا يا رسول الله : تكفيك العمل ، فقال تعلمت أنكم تكفونني إياه ، ولكنني أكره أن أتميز عليكم .

وإذا دعا إلى العدل صدق فعله قوله ، شفع إليه بعض أصحابه في جريمة فاشته به الغضب وقال ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وقد نهج أصحابه نهجه ، خطب أبو بكر رضى الله عنه أثر مبايعته بالخلافة فقال أيها الناس ، أنى قد وليت عليكم ولست بخبركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن صدفتم فقوموني ، الضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

وكان عمر رضى الله عنه يتفقد أحوال رعيته ليلا ليطمئن على أداء واجبه فيها وجهز عثمان ثلث الجيش من ماله في غزوة العسرة حين دعت مصلحة الأمة إلى البذل والتضحية .

بهذا الأسلوب من التطبيق العملي لمبادئ الدعوة دعا محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه إلى التقارب بين الشعوب والنظام بين الأفراد ، فأفلحت دعوته ، وكان نجاحه فيها مثلاً تاريخياً فذا في قوة التأثير وسرعة الاستجابة ، وكان موضع الدهش لدى المؤرخين من العرب والأوربيين ، وما نجت دعوته إلا بأنها قامت على أساس من الأخلاق والعزم والتطبيق العملي لمبادئها ، فهل سلك الداعون للتقريب بين الشعوب الآن ذلك السبيل ، وهل صدقت أقوالهم أفعالهم أم كانت أقوالهم صيحات تبعثها المناسبات ، وهي مزيج من الدهاء والسخرية وألبيات يلهون بها الشعوب كلما حزنهم كرب أو نزلت بهم نازلة ألجأتهم إليها ، يلتمسون لديها تفريج هذه الكرب وتلطيف تلك النوازل ؟

الجواب هو في واقع أحوال تلك الشعوب وموقفها من هؤلاء الدعاة وشعوبهم وفيما يسود العالم من قلق وفزع وسوء ظن ؟

شعب الخير ، ويوجه إلى أقرب الطرق في سعادة الوجود ؛ فإذا كان في قوله تعالى مثلاً : أقيموا الصلاة ، دلالة على فرضيتها كما يقول الفقهاء ، فإن فيه دلالة على ناحية لا تحصل الغاية التي نبه إليها الدين ، وهي النهي عن الفحشاء والمنكر ، بدونها ؛ ذلك أن الإقامة هي التعديل ، من أقام العود إذا عدله ، فكل صلاة ليست على هذا الوجه لا خير فيها ، وهي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، بل لصاحبها الويل ، كما نطقت به آية أخرى من القرآن الكريم . . .

وهكذا تجد الكتاب الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة مشتملة على أسس التصوف ، وقواعده السليمة ، مما يجعل لكل عمل روحاً مشمرة ، ويخلق منه أذواقاً ونفوساً قيمة .

ولذلك يكون للتوفرين على هذه النواحي الصالحة مواجيد وحالات ، وتقع من بعضهم خوارق عادات ، ولا سيما أن سيرهم وسلوكهم مؤسس على تغليب جانب الروح على جانب الجسد ، وإبثارها بالخدمة ، وفي الروح ثروة عظيمة ، ولديها معارف وأسرار كريهة ، ولكن الناس يدسونها بالمادة والانهماك في الملاذ ؛ وفي القرآن الكريم : « قد أفلح من زكاهما ، وقد خاب من دساها » .

وهنا نشير إلى أن بعض صور الكشف التي تصل إليها تلك النفوس قد لا يفهمها العقل ؛ لأن الروح فوق طور العقل ، وقد لا تتفق مع ظاهر الشرع الشريف ؛ لأن الشرع في الأعم الأكثر يخاطب العقول ، ويجارى جميع استعدادات البشر ، وأحياناً يتدخل الشيطان مع بعض السالكين في هذه الطرق ، فيلبس عليهم ، ويزل بهم ؛ وتلك هي أسباب الخلافات التي تقوم كثيراً بين المتصوفة وغيرهم . ومن الحق على الصوفي ألا يظهر شيئاً من إدراكاته التي لا تتفق مع ظاهر الشرع ، وإلا كان عرضة للفتنة وإيقاع الخلاف بين طوائف الأمة ؛ وإذا أظهر شيئاً من ذلك فن حق القائم على الشرع إنكاره ، ولا يكلفه الإسلام قبوله مهما كان صاحبه إلا أن يؤول كلامه بما يتفق مع الدين . ومبنى طريق هذه الطائفة على الرياضة ، وتذليل النفس ، ودفع رعونتها ، ومقاومة ما يدفعها إليه الشيطان ، ويحسسه لها من أبواب الشر والفساد ؛ وخير سبيل إلى ذلك الإغراق في ذكر الله بالصور المختلفة ، ومعايشة الصالحين ، والبعد عن أوساط المفسدين ؛

وبقدر ما ينال المرء من الذكر والطاعة السليمة من الآفات ، يكون حظه من التصرف ؛ ولهذا عرف الصوفية باتخاذ الاوراد التي هي ذكر مرتب في واعيده معينة بصور وأحوال لا تختلف مع ما جاء به الكتاب والسنة من حث ومن توجيه ، وهي من الورد بمعنى المساء الذي يرده الظلماء ، فيروون ظمأهم .

ولابن خلدون في هذا المقام بحث طويل في مقدمته ، يشير في بعضه إلى أن أصل طريقهم بحاسبة النفس على الأفعال والتروك ، والكلام في هذه الآذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ، ثم تستقر للبريد مقاما ، ويترقى منها إلى غيرها : ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم ، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ؛ فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد من أهل الشريعة الكلام فيه ، وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات ؛ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ، وبحاسبة النفس ، والكلام في الآذواق ، والمواجد العارضة في طريقها ، وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك ؛ ولما كتبت العلوم ودونت ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم ، وكتب كثير منهم في عدة نواح ، كالورع والمحاسبة على الأخذ والترك ؛ وجمع الغزالي معارفهم الشرعية في كتاب الإحياء ، وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم ... ثم أشار ابن خلدون إلى أن الطريقة كانت أولا عبادة فقط تنلق أحكامها من صدور الرجال ، ثم صارت علما مدونا يطلق عليه اسم التصوف ، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب ، من التفسير ، والحديث ، والفقه ، والاصول . وتكلم ابن خلدون في الكشف والاطلاع على عوالم من أمر الله بسبب الخلوة والذكر ، وفصل سبب ذلك ، ثم بين أن الكشف لا يكون صحيحاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة .

وتنقل ابن خلدون في أحكام كثيرة تتصل بالتصوف ، وبما اشتهر من مذهب الحلول والوحدة ، وما إلى ذلك مما لا يعنينا الخوض في تفاصيله الآن ، وقد نعرض للحديث عنه في مقام آخر ؛ إنما الذي يعنينا أن نشير إلى أن هذه الطريقة لأمري ما انتشرت في القرن السابع الهجري ، وظهر رجال خلقوا في

آفاقها ، وربما فتن بهم كثير من الناس ، من أمثال السيد البدوى ، والدسوقي ، والرفاعى ؛ وللناس فى طباعهم افتتان بهذه الخوارق التى تسمى كرامات ، وبما يظهر على أيدي بعض الناس من كشف يخبرون فيه عن الغيب الماضى أو المستقبل ؛ ولهذا كان يرجع الناس إلى الكهان فيعظمونهم ويحكمونهم فى أمورهم ؛ وفى عوام المسلمين كثرة تغلو فى تقدير هؤلاء غلوا تخرج به عن الدين ، وتورط فى كثير من الزيف الذى قد يفسد عقيدتهم ، ويخرجهم إلى حد الإلحاد أو الشرك ، نعوذ بالله من الضلال .

وليس فى شرعة الإسلام أكثر من إنزال الناس منازلهم ، مع الحيطة ، حتى لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا يطرى بعضهم بعضاً مهما كان ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما الكل عبد الله وبشر من خلق ، لا يملك لنفسه نفعا ، ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ...

والإمام الدسوقي من أولئك العلماء المتصوفة الذين نشئوا بمدينة دسوقي فى القرن السابع الهجرى الذى أشرنا إلى أنه ظهر فيه التصوف ظهوراً قويا ، وتغلغل فيه رجاله إلى حدود قد تسمى إلى بعض الناس فى بعض عقائدهم بما تسربت عدواه إلى من بعدهم ودرجوا عليه ...

ولد الدسوقي بالمدينة المذكورة سنة ٦٤٣ هـ ، وتوفى بها سنة ٦٨٦ هـ ، فعمره نحو ثلاث وأربعين سنة ، قضى شطراً منها فى طلب العلم ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى ، ووضع فيه بعض كتبه ، ثم اقتنى آثار الصوفية ، كما حدث عنه الشعرائى فى طبقاته ، فكان من أجلاء مشايخ الفقهاء أصحاب الخرق ، وكان من صدور المقربين صاحب كرامات ظاهرة ، ومقامات فاخرة ، وسرائر طاهرة ، وبصائر باهرة ، وأحوال خارقة ، وأنفاس صادقة ، وهم عالية ، ورتب سنية ، ومناظر بهية ، وإشارات نورانية ، ونفحات روحانية ، وأسرار ملكوتية ، ومحاضرات قدسية ، وما إلى ذلك من عبارات خلعتها عليه الإمام الشعرائى ، قد تاق ضوؤه على ما نحاول الوصول إليه من تجلية الرجل للقارئ ، شخصية حقيقية عرفها المتحققون من رجال الفن ، ونوهوا بشأها ، وأعلوا من قدرها ؛ ونحن والقراء الكرام ، نرى فيما ينقلون عن الرجل من عجائب وكرامات يجب أن

تقرأ بغاية التحفظ ، وتؤخذ على أنها أخبار لم يتحرر في نقلها ما يجب أن يراعى في صحة الأسانيد التي تأتي على الأخبار المنقولة ضوء العلم والإيمان الصحيح ، يستوى في ذلك ما ينقل عن الدسوقي وعن غيره ، مهما علت رتبته إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه . فهم يذكرون أنه كان يتكلم في المهد ، وأنه صام أول رمضان صادفه في حياته ، وأن ذلك كان بعد ولادته بيوم واحد ؛ ويقولون إنه يخاطب جبريل ، وإنه يقرأ اللوح المحفوظ ؛ ويذكرون عنه قصصاً كثيرة ، فيها كثير من العجائب والغرائب ؛ ففي بعضها أن نقيبه دفع سبعة من القضاة جاموا يمتحنونه إلى ما خلف جبل قاف ، فكشوا سنة ، ثم عفا عنهم بعد توبتهم ؛ وفي بعضها أنه أمر التماسح أن يلفظ صبيحاً كان ابتلعه ، فلفظ حياً ، ثم قال للتماسح مت ياذن الله فأت ؛ وكثير وكثير جداً من أمثال تلك الأشياء التي قلنا إنه يجب التحفظ في الإيمان بها ، مع الاعتقاد بأن الله قدير على خرق العادات لا يقف أمام قدرته شيء . على أننا نشير بوجوب المبادرة بتكذيب ما يدل الشرع على عدم وقوعه ، ونمسك القلم عن الخوض في تفصيل ذلك ، لندع المجال فيه لحضرات أصحاب الفضيلة أرباب الفتيا ، والمختصين من أهل الصناعة ؛ ثم يشير إلى أنهم نقلوا عن الإمام الدسوقي من النثر والنظم ، ما يدل على أنه كان من المتحققين والصوفية الذين بلغوا شأواً بعيداً في معرفة الله ، والاطلاع على كثير من الأسرار واللطائف ، والامتياز في معرفة دخائل النفوس وأسقامها ، وعلمها وطرق علاجها .

من ذلك : قوله : « من عامل الله بالسرائر ، جعله على الاسرة والحظائر ، ومن خلص نظره من الاعتكاس ، سلم من الالتباس ، لا يكمل الفقير حتى يكون محبا لجميع الناس ، مشفقاً عليهم ، ساتراً لعوراتهم ، فإن ادعى الكمال وهو على خلاف ذلك فهو كاذب ؛ من غفل عن مناقشة نفسه تلف ، وإن لم يسارع إلى المناقشة كشف . إن كنت ولدي حقاً ، ومتبعي صدقا ، فأخلص الرق لله تعالى ، واجعل واعظك من قلبك . وكن عمالاً ، ولا تلتمس من أحد درهما ؛ فإن هذه طريق ، ومن أحبني سلك معي فيها ؛ فإن الفقير الصادق هو الذي يُطعم ولا يُعطى ، ويُعطى ولا يُعطى ، ولا يلمس الدنيا ولا شيئاً من عروضها ، فإن الرشا في

الطريق ؛ حرام وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ لأحد فلساً ، ولا درهما ، وأطال (رحمه الله) في هذه الوصاة القيمة التي تدل على حال ما يقع فيه مدعو التصوف في أزمنة هذه من يعملون طريق الله شباكا لجميع الدنيا ، واحتياالا للتكاثر في الاموال ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا التي هي أبعد ما يكون عن ساحة هذه الطائفة الكريمة .

وقد نقلوا عنه كثيراً من النظم الذي يفيد مقدار منزلته في نواحي التصوف ، ويدل على أنه كان على جانب من البصر باللغة العربية وآدابها . ومن ذلك قوله :

سهم الليل صائبة المرامي إذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع
بالسنة تهمهم في دعاء بأجفان تفيض من الدموع
إذا أوترن ، ثم رمين سهماً فما يغنى التحصن بالدروع

ومن نظمه أيضاً :

سقاني محبوبى بكأس المحبة فنهت على العشاق سكرأ بخلوقي
ولاح لنا نور الجلالة لو أضا لضم الجبال الراسيات لدكت
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضراً أطوف عليهم كرة بعد كرة

هذه هي الصورة التي أردت أن أجلبها للقراء موجهها بها الكثير منهم إلى ميزان الاعتدال بقدر ما وسعه علمي وإطمأن إليه قلبي ، ولا أحب أن أختم هذه العجالة قبل أن ألفت النظر إلى ما اعتاد الناس للدسوقي وأمثاله من شد الرحال ، ونذر الندور ، وإقامة الموالد في هذه الصور التي نشاهدها جميعاً ، وما إلى ذلك من شئون كثر خوض الناس فيها لهؤلاء الأولياء ؛ وهو أيضاً مما أدع المجال فيه لحضرات السادة للفقهاء من أهل التوجيه والقائمين بالإصلاح والإرشاد ، مع حرصى البالغ ووصاتى الصادقة الخالصة أن يساس الناس في التوجيه بلطف ودقة ، ورفق وحكمة ، وتوجيه إلى الحسنى بالحسنى ، والله ولى التوفيق ؟

متاعب الرسول

لفضيلة الشيخ إبراهيم أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

الرُّسُلُ صلوات الله وسلامه عليهم صفوته سبحانه وتعالى من خلقه ما في ذلك شك . . . ولكن حياتهم مليئة بالمتاعب ، حافلة بالأذى ، مخوفة بالكدر ، محروقة بالشدائد ، وقد دل التاريخ على أنه لم يخل واحد منهم من الهموم والمشاق ، والنصب والتغصن . . . وإذا صح أن الامتحان مقياس رضا والقبول ، والدرجات والمنازل ، فإن هؤلاء وصلوا بما تحملوه ، وحصلوا بما صادفوه ، على ما لا يتصور أن تناله البشرية كلها من مكانة مرموقة ، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم . . . إلا أن نبينا - جزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء - كان أكثرهم تعرضا للعنف ، وأوفرهم نصيبا من المكروه ، لأن مهمته أخطر ، ورسالته أعظم ، وقومه أبعد ما يكونون عن اللين والهوادة ، والرحمة والرفق . . . ومنذ أول يوم نزل عليه جبريل وضمه إلى صدره فبلغ منه الجهد قائلا له : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، وذهب إلى خديجة يرجف فؤاده ، وهو يهمهم بقوله : والله لقد خشيت على نفسي ، وقال له ورقة بن نوفل ليتني كنت حيا إذ يخرجك قومك . . . قرأ عذوان كتابه وعلم أنه يخوض غمار الغيب الغامض ، والمستقبل المجهول ، وكان كوقع الصاعقة عليه أن يقول له ورقة - على ضوء ما قرأ بالعبانية في كتب الأديان السالفة - نعم ، فإنه لم يأت رجل بمثل ما أُنشئت به إلا عودى !! ولم يكد بعد ذلك يصعد الصفا والمروة وينادى بطون قريش ليعلم إليهم أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد ، حتى قال له أبو لهب تبث يدك ، ألهذا جمعتنا ، وكان يرجو أن يأخذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، ونزلت فيه السورة المعروفة باسمه ، وكان ذلك إشعالا

لنيران عداوته ، وإذكاً لاتون حقه ، فأخذ يكبد له صلى الله عليه وسلم ، ويفتح له صفحات أخرى من الإيلام والأذى ، والفسوة والعنف ، وقد كان يسكن إلى جواره هو وزوجته حمالة الخطب ، دون مراعات حرمة الجوار ، ولا لزمام القرابة .

أما الجار الثاني : فإنه عقبة بن أبي معيط ، وكان لا يقل في العداوة والبغض والإضرار والأذى عن أبي لهب ..

وقد أغراه أبو جهل ذات يوم أن يلقي الأذى على رأس الرسول وهو ساجد ، وصنع وليمة دعا إليها الوجوه والأعيان ، ودعاه صلى الله عليه وسلم فيمن دعى ، فلما حضر الطعام ، قال له : أنا لا آكل طعام مشرك كافر ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلما علم بذلك أبي بن خلف تهده إن لم يرجع إلى دين الأشياخ ، وهو الذى تقصد إليه الآية : « ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتنا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ، وهؤلاء كالم من المستهزئين الذين كفاه الله شرهم ، وأراه مصارعهم فى بدر وغيرها من الغزوات .

ولو أن تلك المتاعب كانت فى أول عهده بالدعوة ، لقلنا - هكذا - تكون الأمور فى الابتداء شاقة ، لأن المصلح الاجتماعى لا يحتاج إلى الجلد والاحتمال بعد هذه المرحلة ، حيث تكون القلوب قد تفتحت ، والأذهان قد تهيات ، والطباع قد تحولت ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا الاستقرار والسكون .

إلا أنه صلى الله عليه وسلم ظل عمره الطويل ، وحياته المديدة ، فى جو ملبد بالغيوم ، متخيم بالرياح والأعاصير .

ونحن إذا استثنينا فقد والديه ، وموت جده عبد المطلب ، وعمه أبى طالب ، ونشأته فى أحضان الفقر والمثربة ، وغضون العوز والحاجة ، وجدنا أن أيامه كلها فى سبيل الدعوة لم يهنا له فيها صفو ، ولم يصادفه لذة ولا سرور .

وهاهى ذى عائشة رضى الله عنها تقول له : « هل أتى عليك يوم كان أشد

من أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل ، فناداني . فقال إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك . وفد بعث إليك ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال يا محمد . فقال ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدوه وحده لا يشرك به شيئاً ، وصدق الله العظيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . . أما أحد الذي تسأل عنه رضى الله عنها في الحديث ، فإنها الغزوة المعروفة بهذا الاسم ، إذ ترك بعض المسلمين أماكنهم من صفوف الجيش ، حين لاح لهم النصر ، طمعاً في أسلاب العدو ، وكان هذا الخلل سبباً في الهزيمة المنكرة ، التي حلت كثيراً منهم على الفرار ، ولا سيما بعد أن سمعوا منادياً ينادي . إن محمداً قد مات . . وفي هذه الغزوة شجعت رأسه وكسرت رباعيته ، واحتمل من صفوف الأذى ، وألوان العذاب . . مالا يحتمله إلا صناديد الرجال ، ولما عاتب هؤلاء الفارين والمتسببين في تلك الهزيمة أجابوه بذلك العذر الواهي ، وهنالك نزلت فيهم الآيات ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا تؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة تؤته منها وسنجزى الشاكرين ، وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . . ونحن نعلم أنه لم تكن تلك الغزوة فقط من الساعات الرهيبة ، واللحظات الحرجة التي لاقى فيها الشدائد ، وتحمل الأهوال ، فقد مرت بالمسلمين تبوك ، التي سماها القرآن ساعة العسرة ، لأنها صادفت حمارة القيظ ، ووافقت أيام الجذب والجوع ، وكانت محكا للإيمان الصادق ، والجهاد الخالص ، وهتك الله فيها أستارها كانت تغطي على النفاق .

مولد النور

لفقيه الشَّيخ علي رفاعي

مفتش الوعظ والارشاد بالأزهر

بميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انتشر نور الحياة في جزيرة العرب ، وأضاء الله به المشارق والمغارب ، وأحيا به أمة ختمت على ربوعها الفناء ، وأطبق على أهلها ظلام الجهل ، فهبى والأنعام سواء . ومن أراد أن يعرف ذلك تمام المعرفة فليُنظر إلى ما كان عليه شبه جزيرة العرب قبل بعثة من أرسله الله سراجا

وَتَقَدَّمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف المسلمين في هذا الوقت كان مثالا على فدائية القائد الذي يسبق جنوده إلى الهلاك ، ويتقدمهم إلى الموت ، ويبيع قبلهم روحه رخيصةً في سبيل الله ، من غير نظر إلى ما يمرض له من العقبات والصعاب ... وقد عرفنا من حديث غزوة الخندق أنه كان يحفر بنفسه مع أصحابه ، فلما دَمِيَتْ أصبحه لم يَعْنُقه ذلك عن متابعة العمل ، ولم يصدفه عن مواصلة السير فيه ، ولم يزد على قوله : وفي سبيل الله ما لقيت ، ، وكان الذين يعملون معه كلما رأوا منه هذا التواضع ، وأَحْسَسُوا فيه هذا الإيمان ، وشاهدوا استهاته بما يلاقى تأججت عزائمهم ، واشتعلت هممهم ، وضاعفوا جهودهم ...

وربما كان الذي لافاه من خصومه بعضا مما كان يلقاه من بعض أنصاره الذين كانت فيهم جفوة طباع ، وفظاظة قلب ، وخشونة معاملة ، وإذا كان العرب على العموم فساة الأكباد ، غلاظ العادات ، فقد كان قومه على الخصوص أكثر في ذلك كله من سواهم ... وفي الحديث أن رجلا أعرابيا جاء إليه فقال له بأسلوب العنف والشدّة ، يا محمد ، ثم جذبه من حاشية ردائه جذبة تأثرت بهارقبته ، وطلب منه أن يأمر له بشيء من مال الله ، فلم يزد على أن التفت إليه ضاحكا ، وأمره بالعطاء ، وبهذا الديدن ، وذلك الخيم يسود الرجل ، ويستحق ثناء الله ، وإنك لعلى خلق عظيم .

يضىء وقرأ ينير ، يرى أن القوم كانوا في عمام ايس بعده عمام ، وجمالة ليس بعدها جمالة ، عقول كلبلة ، ونفوس مريضة امتطت الشر وركبت الفساد . الجفاء فيهم طبيعة ، والغلظة في أحوالهم غريزة . يرون الشجاعة في السفك والسلب واعتداء الأقوياء على الضعاف . لا تربطهم وحدة سياسية ، ولا تجمعهم رابطة دينية ، ولا يردعهم من فعل القبيح قانون ، ولا يعصمهم عن الوقوع في الدنايا خاق . فهم كما قال الله فيهم : « أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

حرموا نعمة النظر في مصنوعات الله ليؤمنوا بصانعها ، فالدين عندهم هوا . ينحتون الاصنام بأيديهم ، ويتخذونها أرباباً تعبد من دون الله ، يعتقدون فيها النفع والضرر ويقدمون لها القرابين ويخلصون لها التقديس والتعظيم . وليست الاصنام عندهم واحدة بل لكل قبيلة صنمها ومعبودها . وبلغ من تعلقهم بها أن الرجل منهم كان إذا رغب في السفر حرص على أن يصحب معه صنما صغيرا يمسك صنم قبيلته يضرع إليه في حاجاته ، ويستمد منه المعونة في تحقيق رغباته وعجب ما يروى من سفاهة عقولهم وانحطاط تفكيرهم أن بعضهم كان يتخذ إلهه من الحلوى فإذا جاع أكله ! فكل يدل على طمس البصيرة وانعدام التفكير ، وركوب الأهواء وتقليد الآباء ووزن لهم الشيطان أعمالهم فصدتهم عن السبيل .

وكانوا مع ذلك في عقائدهم أصنافا شتى ، فمنهم من أنكر وجود الخالق وجحد البعث والإعادة ، وقالوا : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، ومنهم من اعترف بالخالق وابتداء الخلق وأنكر البعث والإعادة ، وفرقا أنكروا الرسل واستبعدوا أن يبعث الله بشراً رسولا وعبدوا الأوثان والاصنام وزعموا أنها تقر بهم من الله زلفى .

وجمهرة العرب كانوا من هذا الصنف . وقليل منهم كان يميل إلى اليهودية والنصرانية ، وبعضهم كان يعبد الملائكة ويعتقد أنهم بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذلك موجز حالهم الدينية ، أما حالهم السياسية فلا تحزن عدوا ولا تسر صديقا ، فقد كانوا أذلاء مستضعفين لدولتي الروم والفرس . وكانت قوانينهم ما اصطلحت عليه كل قبيلة ، أو ما رآه زعيمها من حسن وقبح ، فالحسن ما يحسنه

والقيسح ما يقبحه ، لا يرون جريمة في وأد البنات وقتل الأولاد ، ولا يأنف المرء منهم أن يشكح زوجة أبيه أو يجمع بين أختين على فراشه .

في هذا الظلام الحالك والليل البهيم بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، نأضاء ببعثته القلوب وأشرق عليها نور الهداية ، فبدل جفاءها مودة ، وغلظتها رقة ورحمة ، وجهلها علماً وحكمة ، وذلها عزاً ومجداً .

لقد جاء ميلاده وسط هذه الغياهب بما سبقه من إرهاصات لإيداننا بعدم جديد تنغير على صفحته تيارات الخلق برسوم من العزة والعظمة ، عصمت بها العقيدة وانتقل بها الفكر من الأحجار إلى بارثما وارتفع البصر من الأرض إلى السماء يتلقف منها حل قضيته ، لئن كتب المؤرخون وأكثروا وأطالوا البحث عن عظيم يكشفون للعالم ما استسر من نواحي عظمتهم . عظيم في قيادته لشعبه وتغلبه على سيء عاداته . أو عظيم في فلسفته يشق بالناس طريقاً إلى ما وراء المشاهدات ، أو عظيم في شخصيته التي تقهر من بعد وتغلب على العقول والقلوب من قرب . أو عظيم في نشأته وتكوينه ، تحوطه العجائب إلى غير ذلك مما يعنى به النقاد الوازنون للأشخاص والأعمال . فأنى لهم أن يكتبوا عن هذه الشخصية التي طالما وضعها الباحثون من أهل الشرق والغرب أمام مناظيرهم حتى إذا وصلوا إلى ناحية زعموها معدة لعظمتهم أشرق شعاع آخر من ناحية أخرى ليست في حسابهم ، فأرجعهم القهقري وقد أحسوا بأنهم لم يصلوا إلى الغاية مما ينشدون .

قائد جمع الشتات ورسم الهدف ووضح لكل ذي بصيرة . إنه أستاذ البشرية على اختلاف طبقاتها وتنوع مذاهبها عن طريق إحياء الفضيلة التي وضعها العالم قبله تحت الأقدام (إنما بعثت لأنتم مكارم الأخلاق) .

ولم ينل هذا بكلمة واعظة أو صدقة مبذولة بل ناله ببذل الوقت وتكريس الجهد ، واستطاع بهذا الثمن أن يجمع من حوله هؤلاء النفر من صناديد المكفر إلى هداة وغزاة في سبيل الله .

تدرج بهم على هدى القرآن في الأدب العالي (فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنتم فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . .) (إنما المؤمنون إخوة)

(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . حتى فاجأوا كسرى على عرش عظمتهم وهم في خشونة الملابس وزهادة العيش بكلمة الحق جريئة حكيمة (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) فعبدوا الله مخلصين له الدين ، وعاملوا الخلق غير عادين ولا غاشين ، فلكوا الدنيا زاهدين فيها والآخرة عن طريق الدنيا وتركوا لنا من بعدهم ميراثاً يفنى الزمان ولا يفنى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) فنكولنا الكريم أصلاً ونشأةً ومن مثله حياة تزخر بالخير وسط شرور قاصية . ومن يدانيه في يتم توجه الاتزان وزانه الأدب وعهدنا بالآيتام الإهمال والضياع أو الدلال وفساد الحال . من كيتيم عبيد الله رزانه وعقلا حتى لم تؤخذ عليه هفوة يعير بها أو زلة لسان أو عثرة قدم تنقص مكانته (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أسعدوا أفكاركم أيها الكتاتيون وأقلامكم ، حين تزجون بها في حياة هذا المولود الذي سعد به العالم . إذ أطلق العقول بعد ما قيدتها الأديان الباطلة بالآوهام والاضاليل (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وحرر الطغام من قيود الاستعباد في الأموال والرقاب ، فأعطى كل امرئ حقه في حياته يرسم لنفسه ما يشاء من مسالك بحيث لا يضر غيره (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً -) (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . .) حتى خلع عن نفسه الحول والقوة ونزل إلى الناس واحداً منهم يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إليكم إله واحد . فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

لقد كان مولد النور والهدى لمن أراد النور والهدى . وليرجع قبل ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانين سنة ، كي تقف معه وسط العالم المتخبط لنجعله أستاذاً مرشداً في ظروف شاه فيها وجه الحق وأصبح الزور والطغيان عند الأمم قانوناً بل وديناً . إننا إن فعلنا وحاولنا الخلاص فلا بد وأصلون (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) فإن من حملة الرسالة وسلمه القيادة قال (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) .

أعلام الأزهريين

حمزة فتح الله

المتوفى سنة ١٢٣٦ هـ (١٩١٨ م)

لفضيلة الشيخ محمد طاهر النقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

ينحدر من سلالة مغربية ، ولكنه ولد في بئر الاسكندرية ، سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) وشب بها ، حفظ القرآن في إحدى مكاتبها ، ودرس العلوم الشرعية واللغوية بجامع الشيخ ابراهيم باشا ، ثم ألحق بالأزهر ، فأنتم به دراسته ، وتوفر على الآداب واللغة فتمكن منهما وأصاب حظا كبيرا ، ودبج الرسائل الادبية ، ونظم الشعر ، ثم عاد إلى الاسكندرية ، ورحل إلى تونس ، فلبث فيها بضع سنين تولى في أثناءها تحرير جريدة الرائد التونسي ، فأكسبه ذلك مرانة ودربة على معالجة الكتابة الصحفية والسياسية . ثم عاد إلى مصر ، فألقى نار الثورة العرابية مشبوبة ، فاتصل بالخدوي ، وكان من أعوانه ومناصريه ، فأوحى إليه أن يحمر جريدة البرهان ، لمُنشئها معوض فريد ، وقد كانت أسبوعية تصدر في الاسكندرية وتعلن أنها صحيفة الخديو ، وتفاخر بأنها حلت من أعتابه العليا محل القبول . كانت الصحف المصرية تحبذ الشورى وتدعو لها ، والكتاب يعضدون هذا المسلك ويجهدون في سبيله ، ولكن الشيخ حمزة ، رحمه الله دعا دعوة رجعية تنافي ما أجمعت عليه الصحف في ذلك الحين ، ولم يقتصر في مناصرته للخدوي على تحرير جريدة البرهان ، بل أصدر جريدة الاعتدال ، عام الثورة العرابية زيادا عن العرش ، وكثيراً ما كان يخاطب معضداً هذه السياسة .

وفي سنة ١٨٦٦ م ندبته الحكومة المصرية لتمثيلها في المؤتمر العلمى الشرقى الذى عقد في دينا، كما ندبته مرة أخرى لتمثيلها في مؤتمر العلوم الشرقية الذى اجتمع في استسكلم، سنة ١٨٨٩ م .

ثم رأى أن يزاول التعليم فعين في سنة ١٨٨٨ م مدرسا بمدرسة الآلسن ، ثم مدرسا بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج عليه طائفة من المصلحين^(١) في اللغة والادب .

وفي سنة ١٩١٠ م عين مفتشا أول للغة العربية ، وظل كذلك إلى أن خرج بحكم الستين ، في سنة ١٩١٢ م ، فعكف على البحث والاطلاع والتقليب في كتب اللغة والادب ، حتى وافته المنية في ابريل سنة ١٩١٨ م بعد أن كان كيف بصره .

أثره في اللغة والأدب :

كان رحمه الله حجة في اللغة ، متمكنا من أصولها وفروعها ، ملما بأسرارها ودقائقها ، غمورا عليها ، شديد الحفاظ لها ، يلتزمها في حديثه مع جميع الناس حتى مع خادمه ، ولم ينزل عن غريبها في جميع ما كتبه من شعر أو نثر أو حديث أو رسالة أو تقرير ، حتى كان بعض الادباء يضع بعض النوادر في أسلوب غريب ، وينسبها إليه لتلصق به .

وكان شديد الحفظ قوى الذاكرة ، ملما بطائفة عظيمة من شعر الفحول وقصصهم ، وأحاديث السلف وما يتعلق بهم ، فما تذكر له حادثة إلا ويفيض في تقريرها وبيانها والتعليق عليها والانتقال منها إلى أخرى مشابهة لها .

هذا إلى عذوبة حديثه ، وصحة عبارته ، وحلاوة محاضراته ، وجمال دعابته ، وما يتدفق منه من بيان وعلم غزيرين .

وكانت له على المدرسين هيمنة واسعة ، وإشراف دقيق في أثناء تفتيشه بوزارة المعارف ، فقد كان يحاسبهم حسابا هسيما على هفواتهم ، ويرشدهم إلى زلاتهم ،

أضلع بالامر : قدر عليه .

وينبههم إلى مواطن الخطأ والصواب ، حتى اضطروهم إلى مراجعة معاجم اللغة ، والبحث في مجفواتها ، وما طال هجره من الالفاظ ، فأخرج كنوزها ، ورد إليها بهجتها ، ونقى عنها ما يداخلها من الأغلاط ، وخلصها من أدران العامية والدخيل ونقاها من عجمة الاساليب وفساد التراكيب .

ويحدث الأستاذ ، عبد العزيز البشري ، رحمه الله عن أثره في اللغة فيقول :
 ، وفي أعقاب نهضة المرصفي ، يقبل العالمان الأدبيان ، الشيخ حمزة فتح الله ،
 و ، الشيخ ابراهيم البازجي ، فيكشفان عن مجفو العربية ، ويستظهران من
 أوضاعها وصيغها ما يدل على الكثير من الاسباب الدائرة ، ويتعقبان الأخطاء
 الشائعة ، ويدلان على الصحيح الناصح ^(١) من كلام العرب فيأخذ الكتاب
 والشعراء أنفسهم بالتحري في التماس الصحيح حذر النقد والتشهير ، وكذلك
 تصفو اللغة وتشرق ديباجتها ^(٢) .

كان من أثر هذه العناية وما أخذ به المدرسين من شدة المراقبة وعسر الحساب
 أن طبع كثير منهم بطابعه ، فتشددوا تشدده ، ونسجوا على منواله ، ووقفوا
 عند السماع وعكفوا عليه ، بل تغالى بعض المفتونين منهم ، وتعدوا طورهم ،
 فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة في اللغة ، ولو وجدت في شعر فحول
 الأدباء من أهل القرون الأولى ^(٣) .

والحق أن هذه طريقة خدمت اللغة ، وكان لها أثر طيب في سلامتها ، ولكن
 الإمعان في التشدد ، وهجر ما سهل من الالفاظ إلى الغريب المتوهر ربما أورت
 الكتابة تعقيدا وغموضا .

وكثيرا ما كانت تعرض عليه وزارة المعارف ما تطبعه من كتب العربية
 فيقوم بتصحيحها ويخرجها سليمة من الأخطاء اللغوية والعربية .

مؤلفاته :

ترك الشيخ حمزة فتح الله ، آثارا دالة غلى غزارة علمه ، ودقة بحثه ، وتمسكه

(١) نصح : خالص ، والناصح الخالص (٢) المختار ج ١ ص ٤١

(٣) الوسيط في الأدب العربي ص ٣٤٠ .

من أسرار العربية وإلمامه بدقائقها ، وقد اتسمت هذه المؤلفات بالبحث المنظم ،
والفسح المحكم ، والاستيعاب الدال على سعة العلم .

ومن هذه المؤلفات :

(المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) التي أحياها ما اندثر من آثار
السابقين ، وجرى فيها على طريقة الجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى في أماليهم ،
وهي فنون من اللغة والأدب والعلم ، دالة على سعة اطلاعه ، وطول باعه
في علوم مختلفة من أدب ونحو وصرف وبلاغة وتاريخ وفقه ومنطق وغير ذلك
فهي أخذت من كل فن بطرف ، وجمع لما يوسع المدارك ويثقف الأذهان ، وهو
إذ يعرض خطبة من خطب العرب أو قصيدة من قصائدهم أو رسالة من رسائلهم
يترجم للخطيب أو الشاعر أو الأديب ويذكر شيئاً من خبرهم ، ثم يشرح أثره
الشعري أو الفكري شرحاً لغوياً دقيقاً ، ويستطرد إلى إعراب الشعر ، ويعرج
بذكر طرف من النحو أو الصرف أو البيان مقابلاً بين هذا المعنى وما ذهب
إليه غيره ، وهكذا لا يزال يتم في الأدب والعلم وينجد ، ويدأف بك بين رياضه
ويهدى إليك من ثماره ، وأنت مفتون بما أهدى إليك ، معجب بطريقة في البحث
ومناهج في الدراسة ، وحسن تنظيمه وترتيبه . . . والمواهب ، جزآن حافظان
بالنسبة الأدبية والبحوث المختلفة التي تقوم الالسة وتمد الأقدام ، وتنقح
الأديب بما لا غنية له عنه ، والكتاب مطبوع متداول .

ومن مؤلفاته رسالة في المفردات الأعجمية التي وردت في القرآن الكريم ،
وهي بحث طريف أعان عليه سعة علمه ، وله رسالة أخرى في الوسم سماها : هداية
الفهم إلى بعض أنواع الوسم ، تحدث فيها عن وسم الخيل والغنم وغيرها وأسماء
ذلك عند العرب مما عثر عليه في كتاب المخصص لابن سيده وغيره من كتب
اللغة ، وفي أول الرسالة فهرس بأسماء السمات مرتب على حروف الهجاء ، والرسالة
محللة بصور بعض الإبل الموسومة ، طبع في بولاق سنة ١٣١٣ هـ ، وله رسالة
في التوحيد نهج فيها منهجاً عقلياً في البحث والاستدلال ، وله رسالة : سماها
باكورة السلام ، في حقوق النساء في الإسلام ، وهي مطبوعة أيضاً .

كتابته :

كانت له في الكتابة طريقتان . طريقة وعرة متسكفة ، وأخرى سهلة مرسلة ، فـمـو يلائم السجع أحيانا ، ويفتن في استعمال الغريب ، ويعمد إلى الزخرف والصنعة ، فتجىء كتابة ثقيلة متوعرة غامضة ، تفر النفس من طول ما بذل فيها من العمل والتكلف .

ولكنه يعمد أحيانا إلى السلاسة والسهولة ، ويتجنب السجع فلا يرد في كلامه إلا عفوا غير مطلوب ، ويتضح معناه ، ويشرق تعبيره .

وهو في كلتا الحالتين فصيح العبارة محكم النسيج ، شديد السطوة . ويغلب أن يكون النوع الأول في رسائله ومعاظنه الوصف ، وبجاراته أساليب القدماء ، وأشد ذلك في توقيعاته . ويغلب أن تكون السهولة والوضوح في كتابته الصحفية وما يتناول به الشؤون الاجتماعية .

شعره :

أما شعره فهو غريب مسدود ، لا يجري مجرى الطبع والارتياح ، بل يتناول على استكراه وتكلف ، ويعنى فيه بالزخرف والصنعة ولا تنقسم منه روح الشعر المطبوع ، ولم نعر على شيء من شعره إلا قليلا .

نماذج من كتابته

كتب إلى بعض الفضلاء يطلب وده ، وهو من نثره المتكلف الجارى مجرى الصنعة والعمل :

« كما أن شغف^(١) الجنان^(٢) ، بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار في محيا^(٣) الكمال ، ومجئى^(٤) الجمال ، فترى العين من تلك

(١) الشغف : شدة الحب . (٢) الجنان بالفتح : القلب .

(٣) المحيا بضم الميم وتشديد الياء : الوجه . (٤) مجئاه : منظره .

الغرة (١) ما يملؤها قرة (٢) ، فكذلك السماع يستدعي هذا الشغف فيتأثر الفؤاد بما يشنف (٣) الأذن بما تهد به إليه طرائف (٤) الاخبار حتى كأن حاستي السمع والبصر في ذلك صنوان (٥) ، بل أخوان ، في هيكل هذا الجثمان (٦) .

و ألا وإن محاسن السيد الاجل لما سارت بها الركبان ، وأثني عليها كل لسان ، ما بين أخلاق أبيه من الروض النضير (٧) ، وأعراق (٨) أشهى من عذائب النسيم (٩) ، قد احتلت من فؤادي لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصبياً ، بل منزلة شماء (١٠) ، ودارة (١١) علياء ، وأرجأ (١٢) بطوالعها السعيدة يسعد ، ويلوح بها من ذكره كل حين فرقد (١٣) ، فلم أنشب (١٤) أن قدمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللقاء ، علته أن يسمح به الزمان . وتشعر (١٥) عنه الليالي والأيام ، ليتاح لي رى الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : ما وصف لي أحد فرأيت إلا وجدته دون ما وصف لي سواك ، وإن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والناة (١٦) . مقتدياً بالإمام محمود جار الله (١٧) في تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه الشريف ابن الشجري أول ما لقيه ، وكان قد تحاببا بالسماع :

كانت مُساءلة الركبان تخبرنا عن جابر بن رباح أطيب الخبر
حتى اجتمعنا فلا والله ما سمعت أذن بأحسن مما قدرأى بصرى .

(١) الغرة : الوجه .

(٢) قرت العين : جف دمعها وبردت من السرور والامم منه القرة بضم القاف

(٣) يشنف الأذن : يطربها ، وأصله من لبس الشنف وهو القرط .

(٤) الطرائف : الاحاديث المستملحة . (٥) الصنوان : الاخوان الشقيقان

(٦) النضير : الحسن . (٧) الأعراق هنا : بمعنى الطباع والصفات .

(٨) النير : الكثير من الماء . (٩) شماء : عالية .

(١٠) دارة : دار ، ويراد بها المكانة (١١) الأوج : العلو .

(١٢) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى .

(١٣) لم أنشب : لم ألث . (١٤) تشعر : تكشف .

(١٥) يتاح لي : يتبألى . (١٦) الناة : الوقار والحلم .

ومن كتابته السهلة الواضحة التي لا التواء فيها ولا تعقيد ، ما كتبه بعنوان
« الشورى ومجلس النواب المصرى ، فمما قاله :

« نحن وإن كنا نعلم ما يترتب على الشورى من الفوائد العظيمة ، والمنافع
الجسيمة ، وما ينجم عن التفرد بالرأى من سوء العاقبة ، غير أن ذلك لم يمنعنا من
إبداء ما نراه من الملاحظات فى الأمرين كليهما ، أعنى الشورى والتفرد بالرأى
المعروف بالاستبداد ؛ فأما الشورى ، فإنها وإن كانت ممدوحة عقلاً وشرعاً بما ورد
فى الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى
أنها واجبة حتماً على أولى الأمر بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ
أحكامهم ، لأن هذا ما لا يقول به أحد ، بل إن مبلغ العلم فيها أنها من الأمور
التي نذبت إليها الشريعة المطهرة من قبيل إتمام مكارم الأخلاق .

« وأما الاستئناس بأن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ترك
الأمور شورية فهو غلط ظاهر .

« ألا وإن الملوك ظل الله تعالى فى أرضه ، لا يجوز الخروج عن طاعتهم ،
ولا البغى عليهم ، ولا تخفى ذمتهم ولا تنكث بيعتهم ، ولا ينقض عهدهم فى حال من
الأحوال ، اللهم إلا بكفر صريح لا يحتمل التأويل ،^(١) .

نموذج من توقيعاته .

وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التي أرسلت إليه ليقرأها ، وكان
قد ضرب على بعضها ، فقال وهو غاية فى الغموض والإغراب :

« لم أرد بذلك الترميج^(٢) إلا الرعوى^(٣) على النثر ، فإن قُلْلا مع حفظ
الجنى خير من كثر يطوح^(٤) به فى مواى^(٥) المنبت^(٦) ،

(١) نشرت بجريدة البرهان الصادرة فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م .

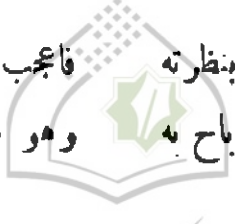
(٢) الترميج : إفساد السطور بعد كتابتها .

(٣) الرعوى ويضم النزوع عن الجمل وحسن الرجوع عنه .

(٤) يطوح به : يرمى به . (٥) المواى : جمع مومة وهى الصحراء .

(٦) المنبت : المنقطع عن السفر (٧) العود : البعير المسن .

نموذج من شعره .

قال في مؤتمر العلوم باستكم :


حمد السرى يا أخى العود^(١) والنب^(٢) أنساك وعشاء^(٣) لإغباب وإخباب^(٤)
 ولو شهدت عابا خضت لجنته على سفين^(٥) بجنح الليل خباب^(٦)
 يطفو إذا خفقت فيه بأجنحة من تحتها كل غواص ورساب
 تجر في اليم أذيالا مصبغة كالخود^(٧) تختال في أذيال جلاباب^(٨)
 ومنها :

طفقت أختلما^(٩) شزرا^(١٠) وقد سمرت عنها اللثام ونضت^(١١) فضل أثواب
 تقول ما للثوى بي مولعا دنفا يا ليتنا بعدولى فى الهوى ما بي
 ومنها :

وهو الذى كان أغرائى بنظرته فاعجب له كيف أغرائى وأغرى بي
 فهو الذى إن كتمت الحب باح به وهو الذى فى مهاوى الحب ألقى بي
 ومنها فى الحكم :

مركز تحقيق كميونر علوم رمدى

- (١) النب : الناقة المسنة (٢) الوعاء : المشقة .
 (٣) إغباب : أغب الإبل صاحبها إذا ترك سقيها يوما وليتين .
 (٤) الإخباب : الإسراع (٥) سفين : جمع سفينة .
 (٦) خباب : مضطرب .
 (٧) (١) الخود : الحسنة الخاق الشابة أو الناعمة ، ج : خودات وخود .
 (٨) الجلاباب كسرداب : القميص ، وثوب واسع للرأة دون الملحفة
 أو ما تغطى به ثيابها من فوق كالملحفة ، أو هو الخمار .
 (٩) أختلما : أخذهما .
 (١٠) شزرا : شزره وإليه يشزره نظر منه فى أحد شقيه أو هو نظر فيه
 إعراض ، أو نظر الغضبان بمؤخر العين أو النظر عن يمين وشمال (قاوس) .
 (١١) نضت : خلعت .

كم جامع بالثريا راضه ^(١) سفر فوق الثرى بين أكوار ^(٢) وأفتاب ^(٣)
 إن الثواء ثواء ^(٤) والقصور قبو ر العاجزين ولا إيراء ^(٥) للخباني ^(٦)
 ومن بغى نيل مجدد وهو في دعة فقد بغى من صفاء ^(٧) در أحلاب ^(٨)
 والمرء في موطن كالدر في صدف والتبر في معدن والنبع في غاب

وقال بمدح الوزير خير الدين باشا بقصيدة مطلعها :

آلاؤك ^(٩) الغرأ وآناؤك ^(١٠) الغرر زهايبا في الزمان الجيد والطرر ^(١١)
 الله ملجؤنا إذ ليس يفجؤنا شر الخطوب وخير الدين لي وزر

(١) راضه : ذلله .

(٢) الاكوار : الرحال أو بأدائها : جمع كور .

(٣) الأفتاب : الأكف التي توضع على نقالة الاحمال ، جمع قتب .

(٤) الثواء : ثوى المكان وبه يثوى ثواء وثوبانزل ، وأثوى به أطال الإقامة به أو نزل .

(٥) الإيراء : أورى الزند إذا أخرج ناره .

(٦) الخباني : خبت النار سكنت أو طفئت .

(٧) الصفاء : الحجر الصلد الضخم لا يثبت .

(٨) أحلاب : الحلب ويحرك استخراج ما في الضرع من اللبن ، والحلب محركة والحليب ، اللبن المحلوب .

(٩) الآلاء : النعم .

(١٠) الآناء : الوهن والساعة من الليل أو ساعة ما منه .

(١١) الطرر : جمع طارة (جانب الثوب الذي لا هدب له وشفير الوادى والبحر وطرق كل شئ وحرقه ، والناصية) وأن تقطع للجارية في تقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج .

دراسات في التصوف :

السهروردي المقتول

لحضرة الاستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

[بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح]

إذا مر مار بحلب ، فقد يرى غرفة مظلمة باردة لا ينفذ إليها ضوء ، ولا تسرى إليها شمس ، ولا يتخللها هواء ، كأن الضوء والشمس والهواء ، تبخل على القبر الذي بها ، أو كأنها لا تعلم أن بها قبراً يضم رفات عقل حر ، وصوفي لقي من جمود عصره ، وصادف من تعنت قومه ، مالم يصادفه رجل آخر : هو رفات لرجل كان مثلاً للشجاعة ، رجل لم يحفل بالموت واستقبله باسمها هازئاً ، كأنما يستقبل نعيًا أو سعادة حققة .

فإن كان سقراط مثل الفيلسوف الحر الذي أثر الموت ، ولم يحفل به ، الذي أعطى الكأس وهي منية شفتى محب يشتهي التقبيل ، ، فإن هناك لصورة أروع ، ومأساة أجمع ، هي صورة هذا الشاب ، ومأساة ذلك المفكر الذي مات ميتة من أفدع الميتات وأعنفها : مات فتنفرق عنه صحبه ، ثم نسي على مر الزمان : وسواء أبكى بالدموع الغزار ، أو رثى بالدر من الأقوال ، فكل هذا قد ذهب ، كما ذهب مفكرنا ومات ، ذهب بعد أن ترك صفحة خطتها له يد الأقدار ، وبعد أن كتب في سجل الخلود اسمه ، وضمن البقاء لذكوره .

هذا هو شهاب الدين السهروردي .

ومن عرفوا بهذا الاسم في تاريخ الإسلام كثيرون ، اشتهر كل منهم بالعلم والفضل والآداب ، ولكن من يميننا من بينهم هو هذا الذي قتل بحلب بعد

أن حرر الفقهاء وثيقة كفره ، وسجلوا زندقته ، واتهموه بالتعطيل وإفساد عقول الشباب .

وليس السهروردي هو أول ضحايا الفكر ، ولن يكون آخرهم ، فكم غيره قد قتل أو سجن ، وكم غيره نفي أو شرد ، ولا ذنب لهذا أولئك إلا سعة الأفق وحرية الرأي ، وهي سعة وحرية تأتي الاتفاق دائماً مع العقلية العتيقة الرجعية الجامدة .

من هؤلاء في تاريخ الفكر الإسلامي كثيرون ، منهم البسطامي الذي نفي ، وسهل بن عبد الله التستري الذي أخرج من بلده متهماً بالقبح والكفر .

وكفهر الجنيد والشبلي ، ورُمي أبو مدين بالزندقة ، وقتل الحلاج ، وأخرج أبو حسن الشاذلي من مصر بعد أن حكم عليه بالزندقة .

ولكن هؤلاء جميعاً اليوم يعدون من أساطين العلم وصناديد الفكر ، صفحتهم بيضاء نقية ، وسيرتهم عطرة زكية ، كانوا شهداء ، وغدوا مخلصين .

ولولا هذا الاضطهاد لازدهرت عقول كثيرة ونبتت ، وسطعت نجوم في سماء الفكر ، خبا نورها واحتجب ، بفعل الاضطهاد .

• • •

اشتغل السهروردي بالفقه ، وراض نفسه على التصوف ؛ نظم الشعر ، وأملى في الفلسفة ، ودون في العلم ، وطوف في البلدان وهو شاب في ريعان العمر ، وما لبث أن قذفت به الأقدار إلى حلب ، فالتجدها له مقراً ، ولنشأته العلمي مسرحاً . جادل فيها وناظر ، فأعجب به الشباب فأحبوه ، وخافه الفقهاء فحسدوه ، وما زالت فئة منهم تدس له المرة إثر المرة ، حتى ظفروا به دردمه . ذلكم الرجل الذي يتغنى الصوفية في أرواقهم بقصيدته :

أبدا تحي اليكم الارواح ووصالكم ربحانها والراح

هو يحيى بن حبش السهروردي ، شهيد من شهداء الفكر ، عالم مفكر ، ذكي حاد الذكاء ، حر النزعة ، فيلسوف متصوف ، شاعر رقيق ، زاهد ازدرى الحياة وزخرفها الفاني ، وطمع في الله والقرب منه ، أراد بالحياة الدنيا حياة خيراً وأبقى ،

فأعرض عن الزائل من ملذات الحياة ، ولم يحاول أن يتقرب للناس أو للملوك ، فسمى هؤلاء اليه ، مع ما كان عليه من هيئة زرية ، وثياب رثة ، لم يهتم بالشئون العرضية ، ولكنه سعى إلى جواهر الأمور وحقائقها العليا .

ذلك هو السهروردي كما اتفق عليه كل المؤرخين ، يقول عنه ياقوت الرومي :
 « شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي ، كان ، فقيها : شافعي المذهب ، أصوليا ، أدبيا ، شاعرا ، حكما ، متفتنا ، نظائرا ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأخيه : قرأ بالمراغة على الشيخ الإمام مجد الدين الجبلي الفقيه الأصولي المتكلم ، ولازمه مدة ، ثم تنقل في البلاد على قدم التجرد ، واتي بماردين الشيخ نحر الدين المارديني ، وصحبه ، وكان يثنى عليه كثيرا ، ويقول : لم أرفي زمانا أحدا مثله ، ولما كنت أخشى عليه من شدة حدته ، وقلة تحفظه . ثم رحل أبو الفتوح إلى حلب فدخلها في زمن الظاهر غازي بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ ، ونزل في المدرسة الحلاوية ، وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ، وبحث مع الفقهاء من تلاميذه وغيرهم ، وناظرهم في هذه مسائل ، فلم يجاره أحد منهم ، وظهر عليهم . وظهر فضله للشيخ افتخار الدين : فقرب مجلسه وأدناه ، وعرف مكانه في الناس . ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء ، وكثر تشنيعهم عليه . »

أما صاحب النجوم الزاهرة ، فيورد لنا : « أن السهروردي كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسمياء وأبواب النيرانجات ، فاستمال بذلك خلقا كثيرا وتبعوه ، وله تصانيف في هذه العلوم . »

ويراه « ابن أبي أصيبعة ، في طبقات الأطباء : « أوحداً من أعلام زمانه في العلوم الحكيمة جامعاً للعلوم الفلسفية ، بارعاً في الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، وكان عليه أكثر من عقله . »

وكان « صاحب العبر ، يراه : « أحد أذكى بني آدم ، وأنه كان رأساً في معرفة علوم الأوائل ، بارعاً في علوم الكلام ، مناظراً محجاجاً ، متزهداً ، مزدرباً للعلماء مستهزئاً ، ولعل هذا هو السبب الذي حمل « ابن خلدون ، على أن يعد « السهروردي ، « رقيق الدين ، وإن لم يذهب إلى اتهامه بالزندقة .

كان عصر السهروردي وبيئته ، عجيبين حقاً ، فقد كان عصر اضطراب بالغ ، وحروب وحشية ، بلغت من الشدة ، بلغا عظيماً ، كانت حروب يدفعها دافعان ، ولها هدفان : الدين ، والوطن . قام المسلمون يذودون عن بلادهم عادية الصليبيين ، ويدفعون هلاقتهم : ليحموا حتى دينهم ، فكان القوم في موس وجنود ، في خوف وقلق : في اضطراب . نشأ عن ذلك كله أن طبع العصر بطابع ديني عنيف ، فكان للفقهاء فيه مكان مرموق ومرتبة سامية ، وكان كل ما يشتم منه راحة الزندقة ، أو يظن فيه الخروج على الدين ، يمس الناس في أرق إحساساتهم وأكثرها تأثراً .

• • •

بالقرب من زنجان من أعمال أذربيجان ، توجد بلدة ليست بالكبيرة الجميلة ، وليست بالصغيرة الخاملة ، وفيها كان يعيش صاحبنا ، لا يشغله إلا التفكير والغوص وراء درر المعاني وجواهر الوجود ، وكأماً ضاق شهاب الدين ببلدته ، أو ضاقت به بيئته ، فنزح عنها يجوب بلاد الله إلى أن ألقى عصي ترحاله في حلب ، وكانت آنئذ من أشهر مدن الإسلام ، يحكمها الملك الظاهر بن صلاح الدين ، الرجل الذي أنهض المشرق فمز المغرب ، والذي دافع ضد غزاة الشرق الآتين من الغرب ، يرجون بحق الإسلام ، ويريدون بيت المقدس .

شد . شهاب الدين ، رحاله إلى سورية ، يحمل في وقاضه الحكمة ، ويطوى في ثنايا عقله العلم والمعرفة ، وما إن وصل حتى ألف حوله العلماء يناقشونه ، وكأماً سبقت شهرته إلى تلك البلاد ؛ وكأماً خيل إليه أنه في أرض الحرية والنور ، الأرض التي بزغ في جنباتها المسيح ، والتي إليها سرى نبي الإسلام ، فدخل حلب يحذوه الرجاء ويدفعه الشوق إلى أن ينادى بمذاهب جديدة ، وأن يبنى آراء جديدة ، وأن يكتب ويؤلف ويعلّم ، وأن يبدأ من جديد حياة جديدة .

ودخل . السهروردي ، حلب ، وله من العمر ثلاثون عاماً ، وله من الشهرة حينذاك ما طغى على كل شهرة خاصة ، وإن كان ما زال شاباً . عرف فضله الشيخ ، افتخار الدين ، فقربه منه ونقل إلى السلطان أمره ، فأحب أن يعرفه ، ولكن الخصوم نقلوا إلى السلطان صورة قبيحة عنه ووصفوه وصفاً تقشعر منه النفوس :

زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له جسماً أو ثوباً أو يداً ، لا يقص ظفراً ولا شعراً ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسمى على ثيابه فيهرب منه كل من يراه .

وهذه صورة بشمة تنفر النفس من صاحبها ، وتحمل الإنسان على البعد عنه ، ولكن إذا عرفنا أن السلطان قد قابله ، وما أن فاض السهروردي في حديثه ، وتكلم في أدق الشئون العقلية والدينية ، حتى قرب به وأقبل عليه وتخصص به ، إذا عرفنا هذا ، علينا مقدار المبالغة في الصورة التي رسموها للسهروردي . وهكذا ذهبت دسائس الخصوم أدراج الرياح .

تحدث السهروردي مع الملك الظاهر ، فرأى هذا منه : صفاء العقيدة ، وقوة الإيمان ، وحرية الرأي ، ونقاء الطوية : فازداد عليه عطفاً ، وله تقريباً وإحساناً . وبالتالي ازداد خصومه منه حسداً وكهداً ، فإذا بالسهروردي عندهم : زنديق كافر معطل ، والادهى من ذلك والأمر أن السلطان قد قرب به ، إذن فعليهم بصلاح الدين .

كان صلاح الدين في مصر ، وكان الطابع الذي يطبع العصر كما سبق القول هو حدة العاطفة الدينية ، نتيجة للحروب الصليبية .

اجتمعت كلمة بعض الفقهاء على السهروردي ، فتألبت معهم جموع الجاهل ، واجتمع شعث الجاهدين ، ولم يكن تأمرهم إذ ذاك على السهروردي ، وإنما كان على الفكر وعلى العلم وعلى الحرية .

خطبوا على المنابر فأثاروا ثائرة الجماهير ، إذ استفزوا شعورها الدينية ، وهي أدق ناحية وأكثرها حساسية عند الشعوب .

هي التي ساقط الأوربيون لفتح بيت المقدس ، وهي قبل ذلك التي دفعت بجموع العرب نحو مجدهم الرائع .

قال المتأمرين : إنهم إنما يريدون إنقاذ الدين ، يمحون زنديق كافر متمرد على الدين ، وذهبوا إلى السلطان والشعب من ورائهم ، ولكن السلطان كان يعرف السهروردي معرفة اليقين ، وكان يعرف مقدار ما في دعاويهم من صدق ، ناهيك بحبه للعالم ، وصلاته الوثيقة بالعالم .

[يتبع]

حول عروج الجسم إلى السماء

لحضرة الأستاذ أكرم زرجاني

أستاذ الأدب العربي بجامعة تبريز
والأستاذ الزائر بجامعة فؤاد الآن

[أصدر مجلس السكرادلة برئاسة بابا روما قراراً أخواه
أن السيدة مريم قد رفعت إلى السماء ، فكتب هذا
المقال على هامش الموضوع]



مركز تحقيق كميونر علوم إسلامي

كم في عصرنا من العجائب والغرائب في كل ناحية من النواحي : في
الاختراعات والاكتشافات ، وفي الأفكار والآراء ، وفي الأقوال والأفعال ،
وفي إبداء الحقائق وقلب موضوعها ، وفي بيان المصالح الاجتماعية البشرية ، ثم
في نقض الغرض منها وتطبيقها على الفوائد الخاصة بأمة أو هيئة أو فرد ، ولو كان
مرتباً على هذا النقض والتطبيق هلاك أمم أو آلاف من النفوس أو خراب
للعالم أجمع .

هذا ما في العالم من رذائل وشرور ومفاسد ومحن ، قد تعد أقل منها شأنًا ،
وإن غدت كالجراثيم تنخر جسم المجتمع ، حتى نجد الناس في هذا العصر أحوج
ما يكونون إلى دعوة تربط بعضهم ببعض ، وتقرب بين عقولهم وأفكارهم
وعقائدهم وآرائهم ، لكي يحصل التفاهم والتعارف بين الشموب والقبائل والأمم
والأفراد ، فتخفف من آلامهم وأسقامهم الروحية التي منوا بها ، من جراء
التعصبات الواهية القديمة في الازمنة الغابرة ، ثم بما انضم إليها من الأهواء
والاطماع الحديثة ، والنزوع إلى الاستعمار والاستثمار ، بسبب عبادة المادة وأتباع

الأغراض وإعراض الناس عن الله ، وجعلهم لإلههم هواهم ، فزادهم ذلك ضغنا على إبلالة .

نعم في هذا العصر يقلب الناس وجوههم في السماء ليجدوا في الأرض من يخلصهم من هذه الظلمات التي بعضها فوق بعض ، فلا يجدون في ساستهم وقادتهم الا مصداق قول الشاعر :

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لي أن ليس فيهم فلاح
أو قول الآخر :

اني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير . ولكن لا أرى رجلا

وبعد اليأس والقنوط من رجال الدنيا ونسائها لمعالجة هذه المشكلات ، أو التخفيف من أفعال شؤمها التي تنوء بالعصبة أولى القوة [عصبة الأمم وما في بابها من لجان كبيرة أو صغيرة] ، كنت أود أن يكون في رسالات الأديان ما يكون شفاء للناس من أمراضهم الروحية ، وكنت أود اتحاد الأديان ، أو تقاربها وتفاهمها على أصول بشرية لإسعاد الأمم والأفراد مادة وروحاً ، حتى تخرج ما في صدورهم من غل ، ويصبحوا بركة الله لإخوانا .

وكنت ولا أزال أرى أن هذا لا كان ولن يكون ، مادام الناس يرون أن الأديان كالأحزاب والمسالك السياسية قائمة على النقاش والجدال والتعصب والاهواء ، وكنت أود أن يكون من زعماء الأديان ورؤساء المذاهب رجال علماء — ولا أهنى بالعلم العلم الدرامي القابل للغش والتزوير ، أو المتغير بالمظاهر والأزياء ، أو المتأثر بالظروف والبيئات ، بل العلم الذي هو وحى وإلهام ، باعث للخيرات والفضائل ، دافع للشرور والردائل ، مذهب للنفوس ومطر لها ماء غشياً من لواحق المادة وغواشيها ، ومصقل لمرايا القلوب من صدأ الآوهام : أو العلم الذي هو نور ، ونور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده ، والعالم الرباني في عصرنا هو الطبيب النظامي الذي جس نبض النفوس ، وعرف داءها ودواها ، وشق القلوب وكشف غطاءها واكتشف ميولها

وأهواءها ، ويسعى لنشر الخير والفضيلة بين الناس ، ويعيذهم بالله من شر الوسواس الخناس ، حتى يتغلب السور على الظلام ، ويسود بينهم الصلح والسلام .

ولا يخفى على من له دربة وقلب سليم ، أنه كلما كثرت مشاركات الخلاف ، كثرت الشقاق والنفاق ، وكلما زادت نعمة في الطنبور ، رقص عليها الراقصون من هواة الجدل في مسارح شهواتهم ، ويزيدون عليها كل ما يوحى إليهم شياطينهم في خلواتهم ، وهكذا كان الفساد بذرة بذورها في حبات القلوب ، وتلاحقت الاحقاب ، وتوارثها الأبناء عن الآباء ، ونمت وانتشرت بأمطار من غمام الاوهام ، حتى صارت اليوم ظلاما في ظلام ، ويحق للعجز أن يرق للبشر .

نوع الإنسان ، على الرغم من انتشار العلوم والمعارف ، واكتشاف شيء كثير من أسرار الطبائع ، أسوأ حالا في هذا العصر منهم في كل زمان ، لانهم قد تعرفوا عن الفضائل المعنوية ، التي هي نتيجة العلم الحقيقي ، الذي يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وصاروا صدق تعريف بيمز الإنسان عن الحيوان ، في طرف الرجحان ، هو : مستوى النماة ، عريض الاظفار ، ماش على القدمين ، وأما من طرف النقصان :

فقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

وفي هذا الزمان الذي طوى الفكر الإنساني فيه مراحل ما كان يحظر ببال الإنسان في القرون الأولى ، وكأنما سار على جناح البرق والبخار ، وتغير مجرى الفكر بمسافات بعيدة عما كان في القرون الوسطى وما قبلها ، وصارت عقول الناس لا تقبل إلا ما يقع تحت الحواس ، ولا اهتمام لاكثرهم بما وراء الطبيعة وحل غوامضها ، وكشف رموزها ، ومفتاح الرمز - وهو الإشراف والتجريد والصفاء - ليس في متناول أيديهم الآن .

فإن الناس اليوم ، في مختلف أصقاع العالم ، لا يقبلون عقيدة جديدة إلا برهان كالحس ، أو دليل كالشمس . وأصبح وقتهم كالذهب ، لا يكسب الذهب ،

ولا يصرفونه في المذهب ، ولا سيما في أمثال العقائد الروحية العويصة ، التي إن فرضنا إمكان إثباتها ، فيختص برجال منعزلين عن الدنيا وزخارفها ، والمادة وسفاسفها ، الذين قد جردوا أنفسهم للعروج إلى السماء ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ولا يخوض هذه الغمار إلا واحد بعد واحد . أفلا يحسن رجال اللاهوت أن يقللوا من المباحث الفلسفية العميقة المثيرة للشاغبات والشبهات ، الموجبة لتشكيك الناس في عقائدهم ، المؤيدة لذبتهم ورجرجتهم ، فيما قبلوه بإقناعات من التوارث والتقليد ، وأن ينفذوا إلى قلوب الناس من طريق العواطف والوجدان ، ليقرّبهم إلى الله زلفى ، وأن يدهوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالنى هي أحسن ، وأن يردعوهم عن الغوص في مشارب الاختلاف ، ومعتراك العقول والالباب ، وأن ينظروا بعيونهم إلى الإمام لا إلى الورا ، فإن العيون إنما خلقت لأجل هذا .

وكم أعجبني وسرني ما قاله الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في بيانه الأخير من لزوم طرد الزوائد والحواشي ، وما يكتنفها من الغواشي ، والرجوع إلى أصول الدين ومبادئه ، والاخذ بشمراته ونتائجه ، وحذف القشور ، والاكتفاء باللباب ، ليكون نبراساً يهتدى به أولو الالباب ، ويخلص الناس من ظلمات الوسواس ، حتى يكون فيه خير العالم أجمع ، والحق أحق أن يتبع .

وكم في مشارق الأرض ومغاربها من ابتلاءات عجيبية من ناحية الأخلاق والأعمال نشأت من الخرافات والأوهام ، ومن الاختلاف في المذاهب والأديان ، ومن تفاوت اللغات والأجناس ، إن لم يتداركها زعماء الأديان - والدين أمّن - حصن وآخر معقل الإنسانية - بالسعى في تلطيف العواطف البشرية وتوحيد طرق الدعوة إلى الحق ، ومحو آثار الحمية الجاهلية ، ونشر مبادئ الإخاء الإنساني ، إن لم يتداركوها فعلى الدنيا السلام ، وعلى الدين ألف . . .

والسلام على من اتبع الهدى .

مصر والسودان

وحدة لا انفصام لها

لرؤسناز عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

إن المتتبع للقضية المصرية يروعه أن كان السودان دائماً ، هو الصخرة العاتية التي تنحطم ههنا سفينة المحادثات المصرية البريطانية ، ذلك لأن اتحاد شقي الوادي ، أمر حيوي ، لا يمكن للمفاوض المصري ، أن يتجاهله ، ويسقطه من الحساب .

وسأعرض في بحثي هذا إلى العلاقات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والثقافية والقومية والجنسية واللغوية والدينية والسياسية بين الشطرين ، وحينئذ سيتضح أن الوحدة بينهما أمر محتوم ، رضى بذلك المستعمرون أم غضبوا .

العلاقات التاريخية بين مصر والسودان قديمة جداً ، وهي ترجع إلى عهد الأسرة الثالثة ، كما جاءت بذلك نقوش حجر دالرمو ، أى إلى حوالي ٢٩٠٠ ق.م ، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة امتدت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثاني ، وأقيمت القلاع والمعسكرات إلى ما وراء الشلال الرابع ، وأضحت الأراضي السودانية إلى النيل الأزرق ، في عهد الأسرة الثامنة عشرة جزءاً من مصر ، تسود فيه النظم الإدارية والسياسية المصرية ، ودللت الآثار على أن بلاد الصومال والواوات ، كانت تدفع الجزية إلى دتحمس الثالث ، كما شيد دأمنحتب الثاني ، معبداً في د وادي باع النجا ، عند النيل الأزرق ، وشيد دأمنحتب الثالث ، كذلك معبداً له في جمة د صلب ، التي تبعد ١٥٠ ميلاً جنوب وادي حلفا . ولقد استتب الأمر للمصريين مدى مائة وخمسين عاماً ، كان السودانيون خلالها يدينون بالدين

المصري القديم ، ويتكلمون أو يتكلم البارزون فيهم اللغة المصرية ، ودرجوا على الكثير من العادات المصرية .

وظلت العلاقة بين مصر والسودان قائمة طوال عهد الفراعنة ، تضعف أحياناً ، وتقوى أحياناً أخرى ، ولكنها تثبت على أى حال مدى تقدير العقلية المصرية القديمة لفكرة الربط بين الشطرين ، وما وراء هذه الفكرة من خير عميم لـ كليهما ^(١) . وفي عهد الأسرة العشرين ، ضعفت صلات مصر بالسودان ، وانفصلت عرى الرابطة بينهما فترة من الزمن ، حتى جاء د قمين ، وغزا مصر ثم السودان عام ٥٢٥ ق . م . ولكنه لم يستطع إقامة أية علاقات معه .

وفي عهد البطالسة ، ازدهرت التجارة ، بين د بطليموس الثاني ، ود أركين ، ملك النوبة ، ازدهاراً عظيماً . وقد ولي بطليموس وجهه شطر المرافئ البحرية ، القريبة من جنوبي السودان ، ليتخذها قواعد للتجارة مع تلك البلاد ، وهذه المرافئ هي بعينها الملاحقات التي يطالب بها الحزب الوطنى اليوم ، وشيد بطليموس مدينة إبيثيراس Epitheras التي كان موقعها غير بعيد من سواكن ، واتخذها قاعدة اتصال وتجارة مع جنوب السودان وشرقه .

وقد نسج جميع حكام البطالسة على هذا النحو من الاهتمام بالسودان وتجارته وخبراته ، وبهمنا أن نعرف أن د أركين ، ملك النوبة ومعاصر د بطليموس الرابع ، وقد لقب نفسه د طنائح آمن تع رع ، نسبة إلى د آمن رع ، وسمى نفسه د ابن رع وحبيب إيزيس .

وظلت العلاقة قائمة بين مصر والسودان في عهد الرومان أيضاً منذ أيام د كورنيليوس جاليوس ، أول حكامهم على مصر ، وأخذوا يرسلون الحملات المتعاقبة لتثبيت حقوقهم في السودان وتأديب القبائل المقيمة على حدود مصر الجوية ، وما الآثار والمعازل المنتشرة في جنوب الوادى إلا دليل هذه العناية بشئون الجنوب .

هذا عرض سريع للاتصال الوثيق بين مصر الفرعونية والبطلمية والرومانية وبلاد النوبة في الجنوب ، ولقد أطاق عليها التاريخ أسماء كثيرة ، نهى في التوراة

(١) كما جاء وقت كان للنوبيين فيه دولة قوية حكمت مصر والسودان وامتد نفوذها إلى بابل .

« بلاد السكوش ، وكوش هذا ، فيما تقول التوراة ، هو جد النوبيين وأخو
 « مصر ايم ، جد المصريين ، وكلاهما من سلالة « حام بن نوح ، ، وتقول بعض
 الروايات ، إن المصريين ، جالية نوبية نزحت إلى الشمال ، وتقول أخرى ،
 إن النوبيين جالية مصرية ، هاجرت إلى الجنوب ، وسواء أكان هذا أم ذاك ،
 فإنه مما لا شك فيه ، أنهما من عنصر واحد ، وقد أثبتت الأبحاث العلمية
 التي أجراها العلامة « إليوت سميث Eliot Smith ، في متابر مصر والنوبة أنه
 لا فرق بين المصرى والنوبى فى التكوين الجسماني ، حتى لبتعذر من هذه الوجهة
 تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر !! وقد وقعت في بدء الاسرات الملكية
 في مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء الزنجية لقمحت بها الدم المصرى والنوبى .
 ولما جاء الفتح الإسلامى ، تدفقت سيول القبائل العربية الى تلك البلاد
 انتجها للرزق ، وبحثاً وراء مناجم الذهب ، فاختلطت دماء النوبيين والبججه بالدماء
 العربية ، ونزلت هنالك بعض قبائل البربر ، ثم جاء الفتح التركى بعنصر آخر حتى
 صار النوبيون خليطاً من عدة عناصر أهمها العربى فالتركى فالبربرى فالنوبى ، ولقد
 أسفر الاتصال التاريخى بين مصر والنوبة عن إيجاد رابطة قوية بينهما ، فإن مملكة
 « نبتة ، لم تقم إلا على أساس الحضارة المصرية ، التي أخذت تنمو وتزدهر
 وتصطبغ بالصبغة الفرعونية .

وبقيت العلاقات بين مصر والسودان قائمة في عهد الحكومات العربية
 الإسلامية التي وليت حكم مصر ، والتي ما فتئت ترسل الحملات الى تلك الجهات
 لتأديب المغيرين على حدود مصر الجنوبية وفرض الجزية عليهم . ولقد قال
 المتنبي يمدح كافوراً الأخشيدى :

يصرف الامر من مصر الى عدن الى الحجاز فأرض الزنج فالنوب

وجرد محمد على الكبير ، رأس الامرة العلوية الكريمة ، حملة لفتح السودان
 كان يرى من ورائها ، إلى تأمين حدود مصر الجنوبية ، وقطع خط الرجعة على
 المماليك ، ولما أشار به عليه مستشاروه الفرنسيون ، من أهمية السودان
 الاقتصادية ، ووجود مناجم للذهب به ، ولحاجته إلى الجند . والمهم أن حدود
 مصر السودانية وصلت جنوباً إلى جزيرة « دنكا ، أمام غندكرو و إلى كردفان غرباً

وذلك بمقتضى فرمان الذى صدر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١، والذى وافقت عليه الدول . وأدخل المصريون بالسودان حينئذ زراعة القمح والخضر، وأنشأوا البساتين وزرعوا أشجار الفاكهة من رمان وعنب وبرتقال وليون . وأسس محمد على بالسودان عدة مدن منها الخرطوم وكسلا، التى أصبحت عاصمة إقليم النابا، والسودان الشرقى، وكثرت هجرة المصريين إلى السودان، واتخذ كثير منهم مقاما، وتزوجوا بالسودانيات . كذلك أنشأ محمد على مدينة فامكا، على النيل الأزرق سنة ١٨٤٢، وجعلها عاصمة مديرية فازوغلى، وأقام على بعد منها قصراً ومعملاً للتقريب عن الذهب مازالت آثارهما باقية إلى اليوم . ونظم محمد على الحكم فى السودان وعين له حاكماً يدعى حاكم دار السودان، يتبع ديوان الداخلية بمصر، وجعل الخرطوم عاصمة للسودان، ومقر حاكم داره، الذى خوله سلطات عسكرية ومدنية مطلقة .

وقسم السودان إلى سبع مديريات هى : دنقلة وبربر والخرطوم وكردفان وكسلا وسنار وفازوغلى، وعين لكل منها مديراً، وقسم المديريات إلى أقسام لكل قسم ناظر، وللديار وكيل ومعاونون وكتابة وقاض ومفت، ثم كون مجلساً أهلياً، وضبطية . . . وهكذا كان الحكم فى السودان صورة من النظام الإدارى بمصر . . . واستتب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لهذا النظام الدقيق وقال مستر بورنج، أحد الساتحين الانجليز فى عهد محمد على : « إن استتباب الأمن شمل كل بلد حكمه محمد على، فحيثما بسط نفوذه وحكمه، وطد دعائم الأمن ورعاه، وحيثما ضاع نفوذه ضاع الأمن . وقال قنصل فرنسا فى مصر : « إن الأهالى والاجانب على السواء، يستطيعون السير فى أى بلد من البلاد التى يحكمها محمد على فى وادى النيل إلى أقاصى السودان، وفى سوريا وجزيرة العرب، فقد أقام العدل صارماً فى حزم وفى غير ضعف، فالسودان قد سادته الأمن كما ساد غيره . »

وبقى السودان فى عهد ابراهيم، كما كان فى عهد أبيه، بمحدوده وإدارته، أما فى عهد عباس الأول فقد عهد السودان منى البغضوب عليهم . وفى عهد سعيد باشا، أجاز صديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، بفرقة سودانية،

أثبتت بلاءً حسناً في الحرب المكسيكية ، ولقد بلغ الشاء والمديح منتهاه على هذه
الفرقة ، في كل التقارير التي كتبت عن هذه الحرب .

أما في عهد إسماعيل باشا ، فلم تشهد مصر في تاريخها القديم والحديث مثلما
شهدته في عهد إسماعيل من توسع منتظم وطيد في السودان ، فاحتلت الجيوش
المصرية فاشودة سنة ١٨٦٥ م ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وأقاليم
خط الاستواء ، وحصل إسماعيل بفرمان سلطاني في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥ على ضم
قائمقامي «سواكن» و «مصوع» إلى حكمه . وفي عهده تم فتح أقاليم
«خط الاستواء» و «مملكة أونبوره» . وبسطت مصر حمايتها على «مملكة أوغنده»
وفتحت «مديرية بحر الغزال» و «سلطنة دارفور» ، وعند حدود الحبشة
والبحر الأحمر ، امتدت الحدود وضمت «سنيت» و «بلاد البوغوص» حتى
«بوغاز باب المندب» وضمت كذلك محافظتي «زبلع وبربره» على خليج عدن ،
وفتحت «سلطنة هرر» في الجنوب الشرقي للحبشة ، ودخلت سواحل الصومال
الشمالية في ممتلكات مصر السودانية ، إلى «رأس جوردفون» على المحيط الهندي
ثم إلى «رأس خافون» .

وبهذا امتدت حدود السودان تحت الحكم المصري جنوباً إلى بحيرة ألبرت
وبحيرة فكتوريا ، وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود
«وداي» ، وحصل إسماعيل من السلطان على لقب «خديو مصر والثوبة»
ودارفور وكردفان وسنار ، ومد بالسودان في سنة ١٨٧٧ حوالي ٥٠ ميلاً
من السكك الحديدية تبدأ من حلغا ، كافته حوالي ٤٠٠ ألف جنيه .

هذا عرض سريع للرباط التاريخي بين مصر والسودان منذ عهد الفراعنة
إلى عهد إسماعيل ، ومنه يتضح مدى اهتمام كل من ولي مصر بأمر السودان .
وإلى مقال قادم نتابع فيه الحديث عن بقية العلاقات التي تراط بين جزئي الوطن
الواحد مصر والسودان .

على هامس الجولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس في كلية اللغة العربية

ومن أطاع الرسول عاداه أعداؤه ، وأحبه أحياءه ، والباطل أليف الشهوة
وحبيب الشيطان ، والحق يعرفه العقل ويقره الوجدان ، ولكن الهوى متيقظ
والعقل وسنان ، والشيطان منحفر والإنسان عُفْلَان .

نادى الرسول الكريم قومه فلم يستجب له غير قلة قليلة تحملت معه لأواء
دهونه وخلاف أمته ، وشقاق قومه وعشيرته ، فلما خشيت الفتنة تركت مكة
إلى الحبشة مهاجرة بدينها وفارة بإيمانها ، غير مبالية مفارقة الأهل والعشيرة
والوطن والمال ؛ وتلك أول هجرة في الإسلام كان فيها عثمان بن عفان وزوجه
وأصحابه ، وقد أقيمت من النجاشي إجلالا وإكبارا وتقديرا برغم ما بذله
عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص في تهوين أمرها وتقليل شأنها . وليت
شعري ماذا خشى ابن أبي ربيعة وابن العاص من هجرة المهاجرين وخروج
المضطهدين حتى يلحقا بهم ويعملا على إفساد أمرهم واحباط عملهم ؟ إن القوم
قد فهموا أن الحق في جانب المخرجين ، وعرفوا أنهم أخرجوا من ديارهم بغير
حق ، وأن بذرتهم قوية شديدة إذا صادفتها التربة الخصبة أفرعت وأبفعت وآتت
أكلها وثمرها ، وعند ذلك نخر الآلهة السكاذبة أمام إله واحد ، وبصرع الباطل
من صرخة الحق ، ويتساوى السيد والمسود ، وتختلف بين الناس موازين التقدير ،
فلا قوة ولا مال ولا حسب ولا نسب ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي
على عجمي إلا بالتقوى .

وبني من بقي بمكة يصلى نار العذاب فيكوى بعيدان محمية أو يصفد ويرمى به
في حَمَامَةِ الْفَيْظ ، حتى فتن من فتن ، ولم يبق إلا من استمرأ العذاب في سبيل الحق

والآلم في سبيل الله . وها هي ذى حادثة مروعة تربنا صورة اضطهاد الباطل للحق والكفر للإيمان والجحود للمعرفة ، والنكران للإحسان ؛ أسرة وادعة عاشت في كف قریش عيشة هادئة متواضعة تسمع وتبصر كل ما حولها من آثام وضلال ثم تسمع بعد صرخة الحق تدرى في الأفق ، ودعوة المختار يصدع بها في ربوع مكة ، وكلها خير وإصلاح وعدالة وسماحة ، فتسرع إليها بحبيبة مليية موقنة مخلصة ، فيعترض لها السادة المترفون ليصدوها عن دينها ، ويردوها عن إيمانها .

ولكن الحق قد انطبع في قلوبها ، والإيمان قد ملأ نفوسها ، فلم يقدرُوا على محوه أو تحويله عن وجهته ، برغم ما بذلوا من تخويف وتأليف ، وتعذيب وإغراء . وعظم الأمر أمام غطرسة المتعطرسين وكبر المتكبرين ، فتفتنوا في إرهابها وأمعنوا في عذابها ، وغالوا في إيلاها ، وهي رابطة الجأش ثابتة الجنان محتسبة صابرة في سبيل عقيدتها وإيمانها ، وليتهم حين عذبوها أحسنوا عذابها . أو قتلوها أحسنوا قتلها . لا بل تجاوزوا مع هؤلاء المستضعفين حدود الإنسانية في أبسط معانيها وأقل مراميها .

هذا أبوجهل عميد الضلال ورأس الكفر وأليف الظلام وعدو النور ، يقتل سمية أم عمار وزوج ياسر بطعنات يصوبها إلى مكان عفتها وموضع طهرها ، فلم يظفر منها إلا بتوحيد يذل شركه ، وإيمان يحقر جحوده .

لقد عذبوا فلذة الكبد على مرأى ومسمع من الحب والعطف والرأفة والرحمة ، وتجراًوا على العفة أمام حارسها وحاميتها وحافظها وصائنها ، وبالغوا في إذلال الشيخ أمام كرامته وعزته وصاحبه وولده ، وهذا نوع من العذاب له لون ينفرد به وصورة يختص بها ، والأسرة عن بكرة أبيها تستعذب ما يقدم لها من مر الاضطهاد في سبيل طاعة رسولها ومرضاة ربها ، فصبرت على عذاب الناس وخافت من عذاب الله ، إلى أن أسلمت أرواحها الذكية راضية مرضية ، وتركزت دنيا العدوان والظلم إلى جنة الخلد والعدل ، وتلك فدائية نستطلع في ثناياها الصراع العنيف بين الضلال والهدى والإيمان والكفر والظلم والعدل ، لقد أسرف أعداء الله في الكيد لأوليائه ليصدوا عن سبيله ومأمم ببالغى غايتهم ولا مصيبي

هدفهم ، فالتصر العزيز قد كتب للمؤمنين في الدنيا والخلد النعيم قد كتب لهم في الآخرة فهم بين حسنين ومرجعهما إلى جنتين .

وألح الرسول في دعوته وألح القوم في مطاردته ورد قوله ، وضائق قريش به كما ضاقت بأهله وعشيرته ، فانتحرت على مقاطعة بنى هاشم وبني عبد مناف لا يبايعون ولا يبايعون ، تنفيذاً لعهده بغض كتيبه بغض بن عامر للقوم وعلق على الكعبة تعظيماً لشأنه وتوكيداً لآثره ، وحبس محمد وعشيرته في شعب أبي طالب وضيق عليهم فنعوا الميرة والمادة نحو ثلاث سنين ، حتى ضجعت أطفالهم من الجهد ورق لمسا أصابعهم بعض القرشيين ، ومنهم هشام بن عمرو بن الحارث والمطعم ابن عدي ، فسعوا في نقض الصحيفة وإبطالها بعد أن أتت عليها القرضة ، ونجحوا في ذلك وخرج رسول الله كما خرج من معه ، وتجهمت له الحياة ورأى من أهل مكة ما كان يراه منهم قبل عزله .

وزاد في كربيه مفاجأته بموت حاميه ومحاميه أبي طالب ، ثم موت الرقيقة مأودة والشريكة المؤازرة خديجة بنت خويلد أم العطرة وزوج الحضرة وأول مؤمنة وخير صاحبة .

هنا اشتد البلاء وقل العون وتجراً على الرسول الكريم سفهاء قومه وكاشفوه بالعداء ، وظهروا له بوجوه طالما قنعوها خشية من أبي طالب ، وصرخوا بالشر وأمعنوا في الإيذاء وضيقوا على الدعوة حتى لا تجد سبيلاً إلى الناس وتعطلت أعمال الرسالة ، وتلفت الرسول إلى ما حوله ومن حوله فوجد الطائف أرق نسيماً وأطيب هواء وأكثر زرعاً وماء ، ورضى أن يكون من سكانها من رقيق طبعه وطابت نفسه وفتحت مسالك قلبه لقبول الحق .

فقصدها ومعه زيد بن حارثة وهو مؤمل في قبول دعوته حريص على تبليغ رسالته ، ولكن طاش سهمه وخاب رجاءه ، فقد عرض أمره على أشرافهم في عشرة أيام لا يدع أحداً إلا جاءه ، فلم يجن من القوم إلا ما جناه من مكة وأهلها وكان معهم كالمستجير بعمرو والمستجير من الرمضاء بالنار ، وكره القوم إقامته فيهم فأمروه بالخروج من بينهم وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة كفاه لعمله وجزاء لهديه ، وباله من بحث مرير وظلم عليل ، نور تطفئوه الظلمة وحق ينهره

الضلال وإيمان يطارده الكفر، لقد أدمت الحجارة قدم الرسول وها هو ذا زيد ابن حارثة يقيه بنفسه ويتوقى عنه بجسمه، فيشج رأسه وفاء وفداء، وانصرف الرسول راضيا من الغنيمة بالإياب وتجمعت نفسه أمامه ونظر الى عظيم ما يحمل وكريم ما يدعوا اليه، ثم فطر الى ازدراء الناس له وهواته عليهم فتوجه لسيده المعز واهب القوة ومالك النواصي بكلمات ما كاد يتمها حتى فوض في إهلاكهم وخبر في عذابهم . وهيات لمن ملئت نفسه بالخير وبعث رحمة للناس أن يذكر ألمه وغضبه عند ما يرجع القضاء له والفصل إليه والمستقبل كفيفل بصدد المسرفين ورد المبطلين ؟

احتفال الأمة الإسلامية

بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

احتفلت الأمة الإسلامية في جميع أقطار العالم على اختلاف أجناسها ولغاتها في يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وهو يوافق الثاني والعشرين من شهر ديسمبر الحالي، بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم . وقد قامت هذه الأمة بنصيبها من هذا الاحتفال على أكمل وجه، وأمثل حال فتلا علماءها سيرته الشريفة، وقارنخه المجيد في المساجد والمجتمعات، وأذاع ملخصها بلسان الراديو حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس وزراء مصر، فدوى صوت رفعتة داخل الدور، فكان ذلك داعيا لزيادة العناية بسماعها، كما كان تطوعه لإلقائها بنفسه حافزا للناس إلى تفهمها، وهي عناية نشكره عليها، وزرجو أن يحذو حذو رفعتة في هذه الطريقة كبار الرجال في جميع الشعوب الإسلامية .

ولا يجوز في هذا المقام أن تغفل ذكر النشاط العظيم الذي قامت به دار الإذاعة المصرية من تخصيص ساعات كثيرة من برنامجها لإحياء يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم وليلته بقراءة القرآن والابتهالات المختلفة . أعاد الله هذه الذكرى الشريفة على الأمة الإسلامية وهي مهيبية الجانب، مرفوعة الرأس بين الأمم، ما بقي الزمان، وتعاقب الملوان .

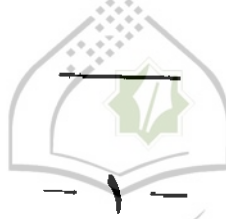
حول إعجاز القرآن الكريم :

الرسول الأعظم

يتحدى الناس بالقرآن معجزاته الخالدة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم ففامبى

المدرس في كلية اللغة العربية



كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والادب والشعر ؛ تحبها وتعشقها
وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفاق والخطيب البليغ ، وتنوّه بهما ؛ وكانت
أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ في القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها
فصيح ، استبشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشيء العظيم ،
وأنت القبائل الاخرى فهنأته ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء ، ولل فراغ
الكثير الذى كانوا فيه ، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلمم
الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ؛ وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر
والنخاصم والحروب المستمرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء
على أشد ما تكون ...

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القيادة ، يصغون لقولهم ،
ويسرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ،

ويرفعون الخامل الوضيع ؛ فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما ؛ وكان النابغة
سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة ، وحكما بين الشعراء في سوق عكاظ ؛
وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى
وملوك الحيرة وبنى غسان ، ويسافر إلى الحبشة ؛ وكان قس بن ساعدة الأيادي
الخطيب يفد على قيصر والغسانيين . . إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب
للبلغة والبلاء ، والشعر والشعراء . . وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب ،
ويضع الهدنة ، فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

- ٢ -

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسائله إلى الناس كافة ،
نزل عليه كتاب مطهر من السماء ، هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد ،
والطهر والخير والحق ؛ وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة ، وأخبار
الأمم ، وقصص دعاة التوحيد ؛ من المرسلين والأنبياء ؛ وفيه كل ما يسعد الناس
في دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع ، وعبادات ، وأخلاق ، وفضائل ،
وآداب ، وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحي الصادق ، والدستور
العظيم ؛ فكان في أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ،
ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ، ومحاورات ،
ومفاخرات ، ومنافرات ، ووصايا ، ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم ، نفروا ساجدين لفصاحته ، مدعنين لبلاغته ،
مقرين بأنه تسبيح وحده ، وعلم مفرد في طبقة في البيان . . . بهر الشعراء منهم ،
نخرست أسلفتهم ، وسكنت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب
في الصحراء ؛ وعجبت الخطباء فيهم ، نخرست مقارولهم ، وصمتت ماكانتهم ، وفقدوا
مواهب البلاغة والقول . . وذهبت كل بلاغة في تياره ، وضلت الفطر الأدبية
العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الاذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين .
فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على داعية الإسلام . .
فقالوا في القرآن : هو شعر ، وهو سحر ، وهى أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا
مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ودموا محمداً بالجنون .

فتحدهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه : بهذه المعجزة
الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربي المبين . قال الله
تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ،
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ،
فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » (١) . وقال تعالى :
« أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفريات ، وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين ؛ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله
وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ » (٢) . وقال تعالى : « أم يقولون : نقوله ،
بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين » (٣) . وقال تعالى :
« قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ،
ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٤) ، فسجل عجز البشر كافة ، وبين أنه لا يستطيع
الإنس والجن - ولو تظاهروا - على الوقوف أمام هذا التحدى ، ولا يقدر
على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم : لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور
الإنس والجن ، الملك القادر ، والمدير الحكيم : الله جل جلاله ، وعلت قدرته ،
وعظمت حكمته . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن
يكون شاعراً وساحراً ، ومن الافتراء والجنون ، ومن الكذب والخيال ، والنجم
إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى : إن هو إلا وحي
يوحى » (٥) . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ وما هو بقول شاعر ، قليلا
ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين : ولو

[٢] هود : آية ١٣ و ١٤ - وهى مكية

[٤] الامراء : د ٨٨ - وهى مكية

[١] البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ - وهى مدنية

[٢] الطور : د ٢٣ و ٢٤ - وهى مكية

[٥] النجم : د ١ و ٤ - وهى مكية

تقول علينا بعض الاقاييل ، لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإننا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ،^(١) .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم واقتراءهم ، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ؛ وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة .

فمجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزي والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة أو سور .. واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبلغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

منزلة تحققت في ٣ - ٤ - ٥

ثم امتدت الاجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صدهاء في المشارق والمغارب ، فلم تر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ؛ ولم تر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقى خطبة ، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ؛ ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر .

وفي تاريخ العربية خول وخول : كبن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع ، وكجرير والفرزدق وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري وشوقي - ولكن أين بلاغانهم من هذه البلاغة ؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة ؟ وهل منهم إلا من أذعن وبهر ، وخشع وسحر ، وخضع وأخذ ، وأيقن أنه وحى السماء . وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة : كنهج البلاغة ، ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمثة ، ومقامات البديع الخ .

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات ؟ وما مكانتها وما قيمتها ؟ وما أثرها وما خطرهما في البلاغة الأدبية ؛ أمام كتاب الله المعجز ، وكلامه الحكيم ؟ بل أمامك الحديث النبوي الشريف ، وهو في الدرجة العليا من الفصاحة ، ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان ؟ واقرأ إن شئت بلاغات البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر — بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لب ، وجمع عقل — في ذلك ، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين ^(١) ،

وأراد مسيلة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاما ، يخزى وعجز ، وبان عاينه العى والخصر ، وباء بالخمران وسوء المنقلب ؛ وأين يقع قوله ، والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت ، أسيد ، من رطب ولا يابس ، وقوله والمبديات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قحاً ، والطاحنات طحناً والخابرات خبزاً ، والثارذات ثرداً ، واللاقات لقماً ، إهالة وسمناً ؛ لقد فضلتهم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، وغير ذلك من كلامه ^(٢) ، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ^(٣) ؟

— ٤ —

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشروعون ، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء . ولكل منهم كتب وآثار أدبية .

[١] ١٢٦ إجماع القرآن للبنافلانى طبعة ٩٤٨ .

[٢] راجع طرفاً منه فى المرجع نفسه ص ١٢٨ .

[٣] آية ٤٧ سورة فصلت .

ولكن هل هناك من هذه الآثار ، ما يعادل في أثره وخطره ومنزله القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ورسم لاهداف الأفراد والجماعات والشعوب ، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والأخاء والمساواة والمدنية والعلم والرفق ؟ . وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدمونه ، ويدعونه دستورهم في الحياة ، ويقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية ؟ . وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ .

وهل للقرآن — بربك — شبه من الكتب : وحد لغة وحفظها وأذاعها في العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها ، وأساليها ، وأحيا فنونا جديدة من الأدب ، وتأثر الناس بلاغته وفنونه وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . . . كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيائية وفكرية في لغة العرب : فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفي حياة العالم والانسانية كافة ؟



ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم : يؤمنون ، إيمانا صادقا ، بأن لا سبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه : وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين الذي عجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثله .

وستمضي الأيام ، وتتوالى الأجيال : وهو يضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، ويفتن الالساب والمقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : . الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثاني : تشعمر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله : ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ؟

الخلافة بعد فتح الأندلس

المؤلف: هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

تكلمنا في العدد الماضي من هذه المجلة عن الخلافة العباسية في القاهرة، ويريد أن نتابع في هذا البحث موضوع الخلافة العباسية، وموقف سلاطين آل عثمان منها بعد فتح سليم الأول لمصر سنة ١٥١٧ م :

لم يهتم العالم الإسلامي بهذه الخلافة اهتماماً كبيراً خارج مصر، فالإمارات الإسلامية لم تسع في الحصول على تفويض للحكم من الباسيين بالقاهرة إذا استثنينا من ذلك محمد بن طهلق حاكم دلي : وذلك أنه بعد أن حكم مدة ثمانية عشر عاماً حكماً استبدادياً أراد أن يكون حكمه شرعياً، فتمكن من الحصول على تفويض للحكم من الخليفة العباسي بالقاهرة .

كذلك بلاد الحجاز مع أنها كانت خاضعة لحكم المماليك بمصر، فإنه لم يدع للخلفاء العباسيين في خطبة الجمعة من على منابرهم إلا مرة واحدة زمن الخليفة المستعين بالله أبي الفضل، الذي يربيع بالسلطنة والخلافة معا على أثر قتل الناصر فرج .

ولقد اتخذ معظم أمراء المسلمين خارج مصر — بعد أن شعر كل منهم بقوته في بلده — لقب خليفة، مثال ذلك ما حدث في تونس عندما تلقب أميرها أبو عبد الله الحفصي بهذا اللقب — كذلك تلقب تيمورلنك بلقب الخلافة — وكان السلطان محمد الفاتح العثماني يخاطب سلطان خراسان بلقب خليفة .

إذن يمكن القول بأن هذا اللقب قد اتخذته أكثر من حاكم إسلامي في وقت واحد، كل يحكم قطراً إسلامياً .

على هذا النحو اتخذ سلاطين آل عثمان هذا اللقب قبل فتح مصر سنة ١٥١٧
بمدة قرن ونصف — فاستيلاء السلطان سليم على مصر إذن لم يقدم أو يؤخر في
اتخاذ هذا اللقب للسلطان .

أما ما تتداوله الكتب التاريخية من تنازل الخليفة المتوكل العباسي رسمياً
للسلطان سليم الأول عن الخلافة ، فإنه لم يرد في ذلك نص صريح يؤيد هذا
التنازل : فتلا المؤرخ المصري المعاصر بن إياس ، الذي عاصر الفتح العثماني ووصفه
بالتفصيل يقول :

« إن المتوكل سلم إليه مخلفات الرسول وهي : البردة التي كان يلبسها الخلفاء
العباسيون في بغداد ، وبعض من شعر لحية صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة
عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

من هذا يتضح أنه لم يوجد ما يؤيد صراحة التنازل عن الخلافة ، أما الدليل
الوحيد الذي يستند إليه المؤرخون الأتراك والأوربيون بخصوص هذا التنازل
الرسمي فهو ما ذكره موراجي دوسون Mowrajei D, Hosson سنة ١٧٨٧
في كتابه « سلسلة عامة للنسب آل عثمان ، وحتى هذا المؤرخ الذي أشار
إلى تنازل الخليفة المتوكل العباسي لسليم الأول عن الخلافة رسمياً لم يذكر المصدر
الذي اعتمد عليه حتى يؤيد هذا الزعم — ولم يحاول أحد من المؤرخين الذين نفلوا
عنه الكشف عن حقيقة هذا القول ، ومن ثم انتقلت هذه الفكرة غير المستندة
إلى سند يؤيدها من كتاب إلى آخر من الكتب التاريخية شرقية كانت أو غربية
وأصبحت أمراً متفقاً عليه غير منازع فيه من حيث الدعاية الأوربية التي انتشرت
في العالم الإسلامي لتأييد دعوى العثمانيين للخلافة .

ولو اعتبر السلطان سليم نفسه خليفة للخلفاء العباسيين لاستعمل ألقاب
الخلافة بالأسلوب القديم ، ومما يؤيد هذا أن سليماً بعد فتحه لمصر لم يذكر في
مراسلاته مع ابنه سليمان ، أو حتى مع كبار الموظفين هذا اللقب أو أي لقب آخر
يتصل به — أما الألقاب التي وردت في هذه المراسلات فهي : الخاقان — السلطان
خادم الحرمين ، وغيرها من ألقاب العثمانيين .

وبما هو جدير بالذكر أن لقب خادم الحرمين كان يعتز به سليم الأول ويفخر به عن غيره من الألقاب ، ثم توارثه عنه بقية سلاطين الدولة العثمانية — وكان هذا اللقب من ألقاب سلاطين دولة المماليك وليس من ألقاب الخليفة العباسي .

على ذلك يمكن القول بأن سلاطين آل عثمان قبل فتح مصر وحتى بعد الفتح لم يحفلوا باللقاب : الخليفة والإمام وأمير المؤمنين ، حتى إنه لم يرد لها ذكر في المكاتبات الرسمية — وربما كان ذلك راجعاً إلى تأثر العثمانيين بمذهب أبي حنيفة الذي يدينون بمبادئه ، والذي كان يرى أن الخلافة الحققة لم تدم إلا ثلاثين سنة كما أنه لم توجد هذه الألقاب فيما كتبه الفقيه التركي إبراهيم الحلبي في كتابه « ملتي الأبحر » الذي أصبح مرجعاً هاماً في التاريخ العثماني ، كذلك ما دونه فريدون بك في رسائله السياسية التي قدمها إلى السلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٥ لم يعتز فيها على هذه الألقاب .

ولم يتلقب سلاطين آل عثمان بهذا اللقب إلا في القرن الثامن عشر الميلادي إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة بشكل جديد في معاملاتهم الدولية مع المسيحيين ، وكان ذلك لأغراض سياسية ، غايتها أن يكون لهم شيء من النفوذ الديني على العالم الإسلامي الذي كان كثير منه تحت سلطان الدول المسيحية — ففي معاهدة كوشك كينارجي Kuchuch Kainarji التي أبرمت بين السلطان عبد الحميد الأول وكثرين الثانية ملكة روسيا سنة ١٧٧٤ اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة ، وأعطت هذه المعاهدة السلطان العثماني السلطة الروحية على المسلمين في شبه جزيرة القرم ، كما منحت له حق تفويض وإلى هذه البلاد بالحكم ، وتعيين القضاة ورجال الإفتاء — ولقد فطن الروس إلى أن هذه المادة تمهد السبيل لتدخل العثمانيين السياسيين في هذه البلاد ، فألغوها سنة ١٧٨٣ .

وفي القرن ١٩ أصبح للقب الخلافة المعنى القديم الذي يقصد به السيطرة على كافة المسلمين - وقد ظهر ذلك جلياً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في دستور مدحت باشا في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٦ ، حيث نصت الفقرة الثالثة منه على أن السلطنة العثمانية العظمى آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى ، وسوف تؤول

إلى أبناء البيت المالك - وتنص الفقرة الرابعة على أن حضرة صاحب العظمة السلطان بصفته خليفة المسلمين قد أصبح حامى الدين الإسلامى .

ومن أهم العوامل التى جعلت الخلافة تظهر بهذا المعنى القديم ضعف العالم الإسلامى ووقوعه تحت سيطرة الدول الأوروبية الإستعمارية ، كوقوع الهند تحت الحكم البريطانى - وتقدم روسيا إلى أواسط آسيا فبسطت نفوذها على شعوب إسلامية ، واقتطعت فرنسا جزءاً من أملاك العثمانيين فى شمال أفريقيا - فكل هذه العناصر الإسلامية الماشقة فى أنحاء العالم كانت تطمح فى أن يكون بينها ارتباط بأقوى دولة إسلامية وهى الدولة العثمانية .

ومن هذه العوامل أيضاً : أن السلطان عبد الحميد حكم الدولة العثمانية فى ظروف حرجية ، فالولايات المسيحية الباقية فى البلقان تحت حكم العثمانيين مثل الصرب والجبل الأسود واليونان ... كانت تتفاقم فيها الثورات بقصد الانفصال عن الدولة العثمانية ، أضف إلى ذلك إعلان روسيا الحرب على الدولة وتهديدها للقسطنطينية سنة ١٨٧٣ ، فذلك كله جعل العالم الإسلامى الذى خضع للنفوذ الأوروبى يتجه شطر الدولة العثمانية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أخذت الدولة العثمانية تتجه أيضاً إلى العالم الإسلامى الخارجى لتكسب عطفه الأدبى فى صراعهما ضد المسيحيين . .

وقد جد عامل آخر جعل السلطان عبد الحميد يهتم بالخلافة ، وهو مقاومة الحركة الدستورية التى ظهرت فى تركيا بقيادة مدحت باشا ، ففضى عليها وعلى قائدها وحاول أن يحكم بطريقة استبدادية رجعية ، فعنى بإحياء الخلافة بمعناها القديم لى يؤكد الصبغة الدينية ، فتلقب بلقب خليفة الله فى الأرض ، ولقب أمير المؤمنين .

وقد نجح السلطان فى ذلك نجاحاً مؤقتاً حيث ثار عليه رجال حزب الاتحاد والترقى ، وخلصوه لعمله على تأييد حكمه الاستبدادى فى بلاده بإلغاء الدستور ووقوفه فى سبيل الإصلاح .

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، وهزمت فيها ، وفر مصطفى كمال إلى الأناضول ، وتمكن من إجماد جيش بصعوبة دافع به عن الوطن التركى

وأحبطت المشروعات التي كانت ترمي إلى تقسيم الأناضول - وأعلن المجلس الوطني الكبير إلغاء السلطنة العثمانية ، وأعلنت الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها ، ورأى الأتراك أن بقاء الخلافة لم يعد له مبرر ويرجع ذلك إلى عدة عوامل من أهمها :

أن بقاء الخلافة قد يثير حوله حركات رجعية ودسائس ترمي إلى معارضة الحكم الكمالى ، وقد حدث هذا فعلاً في داخل تركيا ، وحتى في الخارج تزعم هذه الحركة أمراء الهند مثل أغاخان وأمير على .

ومن هذه العوامل أيضاً أن فكرة الخلافة ترتبط بحركة الجامعة الإسلامية ، أى جمع المسلمين تحت لواء واحد ، وهذه الفكرة المرتبطة بالخلافة تخالف فكرة الدولة القومية الحديثة التي أخذت بها الجمهورية التركية الجديدة ، إذ أن أغلب سكانها أتراك لا يريدون أن يكون لهم شأن بمشاكل العالم الإسلامى المشتت في أنحاء مختلفة .

ومن هذه العوامل أيضاً رغبة مصطفى كمال في أن يجعل الوطن التركى وحدة واحدة متجانسة لا تفريق فيها بين الأفراد أو الرعية بسبب المسائل الدينية . وهناك عامل آخر ، وهو أن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية في الإسلام لا يتفق ونظام الخلافة .

والعامل الأخير ، هو أن وجود الخلافة في تركيا ، يؤثر في علاقة تركيا الحديثة بالدول الأوروبية - ولم يشأ مصطفى كمال أن تنزع تركيا العالم الإسلامى وهي في حالة من الضعف والتفرقة ضد الدول الأوروبية المنتصرة ، التي استولت على معظم أملاك الدولة العثمانية القديمة - لذلك لم يرغب في أن يزج ببلادها ، في مشكلات لا حل لها ، وفضل إلغاء الخلافة في ٣ مارس سنة ١٩٢٤ . وكان لا مانع عنده من أن تقوم في أى مكان آخر .

وفي سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر للخلافة في القاهرة ، وحضر مندوب عن تركيا وأعلن أن لا مانع من إقامة الخلافة في أى مكان ، ولكن ظروف العالم الإسلامى لم يهيء له قيام الخلافة منذ ذلك الوقت .

فجعة السر في مهاتما الغرب

لدرستاز صمزة محمد السبخ

لبسانسيه في الادب الانجليزى

من جامعة فزاد الاول

بالامس الغريب تجاوزت أسلاك البرق في العالم كله تذيع أن حياة برناردشو قد انتهت ! مات بعد حياة دامت أربعة وتسعين عاماً . فقال صديق له ، وهو يغادر منزله ، هذه نهاية حلقة من حلقات التاريخ ، ، وتلقى أندريه مورا ، الاديب الفرنسى ، النبأ بقوله : إن (شو) استطاع أن يقدم للمسرح الانجليزى طاقده لبسن للمسرح السكنديناوى ، ووفاء (شو) سيكون لها صداها الكبير في العالم كله ، ذلك أن (شو) كان أحب الكتاب جميعاً لدى الرأى العام ، لاما كان يقول ، ولكن للانجاء الذى يمثله ، ، وقال بيتس ، Yeats ، الشاعر الايرلندى عن (شو) — له أحد أبناء النور الذين نشأوا بين أبناء الدنيا . إنه ينطق بلغتهم ، ويفكر مثلهم ، ولكنه مأخوذ بطبيعة أرفع وأسمى ، ، وقال ماسفيلد الشاعر يحيه في عامه التسعين ، من قصيدة شعورية : دأيتا الرموس النيرة على هذا السكوكب . كرميه وهو بقاء الحياة ، ولبات ولالة الفن الجليل بعد قرون فليأمرؤا له بالنصب والتماثيل ، .

أما شو ، نفسه فكان يقول : لائقى لا أحب الحياة لذاتها ، وليست الحياة مصباحاً صغيراً أحله ، وإنما هى مشعل هائل أمسك به الآن فى يدي ، وأريد أن يشتعل وأن يزداد توجهه قبل أن أسلمه للأجيال المقبلة ، ، ولعل ذلك ما كان يراه من فرق بينه وبين شكسبير ، إذ كان يرى نفسه صاحب رسالة لجيله والأجيال التالية ، وأن شكسبير لم تكن له رسالة يحملها لجيل من الأجيال .

فما هي تلك الرسالة التي أداها ديشو ، ، والتي جعلت أبناء عصره يحيطونه بفيض من الشهرة والاعجاب كانا حقاً له ، بل دون حقه بكثير ؟ .

وقبل أن نخوض في جوانب الرسالة الشوائية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجل بنشأة الأديب التي كان لها أثر عميق في توجيهه ... فقد نشأ في أيرلندا ، والاييرلنديون قوم أرهقهم الحكم الأجنبي ، وعضهم الفقر ، فرحلوا من وطنهم يطلبون الرزق ويكدحون في سبيله ، ووجدوا في الفسكاه المستقرة في أعماق نفوسهم خير معين على فقرهم وسلطانهم المسلوب ، ومن هذه البيئة استمد ديشو ، سحرته وتمرده وإيمانه بجدوى المال في حياة الناس . وورث برنارد شو عن أمه الذوق الموسيقي المرفه ، وحاكاها في تمرداها على التقاليد ، كما أخذ عنها الدعوة الصوفية النباتية فأصبح من النباتيين ، حتى إنه كان يدعو نفسه مهتما الغرب ، كما كان - فيما بعد - يقول عن غاندى ، إنه من العظماء الذين لا يجود التاريخ بأمثالهم إلا مرة في كل ألف سنة .

وأتاح للإيرلندية لبرنارد شو أن يتجه تفكيره اتجاها عالمياً ، فزرع إلى الثورة على الاستعمار والاستغلال ، وحاول تحطيم الأغلال التي تستعين بها الأمم القوية في تقرير مصير الشعوب المستضعفة . وفي الحق إنه إذا كان العالم بأسره حرياً بأن يذكر ذلك الفسك الحر الطليق ، في وقت طغت فيه ذاتية الشعوب وقادتها على آرائها واتجاهاتها ، فإن مصر خاصة خليفة بأن تعز بصداقة مفكر هذا شأنه ، وبأن تقوم اليوم بتمجيدته وإحياء ذكراه .

كان برنارد شو يعطف على مصر ، ويقرأ عنها كثيراً ، ويتقصى أنباءها المتقلبة تغلب الدهر ، بل إنه ساهم بنصيب كبير في عرض قضيتنا الحائرة أمام الرأي العام الإنجليزي ، ودافع عن المصريين أمجد دفاع أيام محنة دنشواي ، فكتب فصلاً طويلاً ، لم يكتب أحد مثله ، في مقدمة روايته دجزيرة جون بول الأخرى ، يدافع عن المصريين ، وقت أن كان لورد كرومر يعامل المصريين معاملة السيد لعييده وإماته ، وفي حقبة حالكة من تاريخ مصر ، عز فيها الصديق الذي ينتصر للحق ، ويقاوم الطغيان أنى كان . وقد لاقى ديشو ، في سبيل دفاعه عن مصر كثيراً من تهكم بعض الكتاب الاستعماريين ، الذين اشتقوا من اسمه واسم

دنشواى نسبة واحدة فقالوا ، شاقيان ، Shacrian ، غير أن ، شو ، واصل اهتمامه بالقضية المصرية ، فراح يعرض على قرائه تاريخ المحكمة المخصوصة ، التى أنشأها الإنجليز لمحاكمة المصريين ، وأثبت بقلبه الصريح العادل وبسخريته اللاذعة ما لاقاه المصريون من جور وعسف واضطهاد . ولم يقر لكاتبنا العظيم قرار ولم تخب نيران حملته على مواطنيه ، حتى عفى عن المصريين الذين سجنوا ، وعادت المياه إلى مجاريها .

ولمنا نستطيع أن نفي الرسالة الشوثية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الإنجليزى الذى اتجه به ، شو ، اتجهاً واقعياً ، أخذ أساسه عن هنريك إبسن النرويجى ، الذى استكشف الرجل العادى ، وأزاح الحجب عن حياته وسجل بطولته ، وعلى إبسن العظيم تتلذذ شو ، العظيم . ومن هنا كانت المشكلات التى يعالجها ، شو ، ليست مشكلات خاصة بأصحابها ، ولكنها مشكلات اجتماعية تناول العام قبل الخاص ، كالزواج و قدسيته التقليدية (مهنة مسز وارن) والدين ونفاق المتدينين (الميجر باربارا) والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة جون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (بيجاليون) . ويقوم ذلك المسرح الذى دعمه ، شو ، على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع ، فليس يفصل المشاهد غير الحائط الرابع ، الذى نعرفه بالستار ، الذى يرى ما يجرى فى بيوت الناس .

أما فلسفة ، شو ، الاجتماعية فهى : الاشتراكية الغاية ، التى نادى بها الجماعة الغاية ، منذ تأسست فى سنة ١٨٨٤ ، وهى ليست سوى حركة تهدف إلى إصلاح المجتمع والحكومة بتوفير المال للجميع على اعتباره الوسيلة المجدية لتخليص الناس من الرذائل المادية والمعنوية .

ولا يؤمن ، شو ، بالديمقراطية كذهب سيامى ، بل على عكس ذلك نراه يعجب بالديكتاتورية بمسكريها الفاشى والشيوعى . ونعزل السبب فى ذلك أن الجماعة الغاية ، نفسها كانت تنتمى إلى حاكم بأمره قديم ، ثم إننا رأينا ، شو ، يبشر بالسوبرمان فى مسرحيته ، الإنسان والإنسان الأعلى ، فلعلة كذلك كان

يرى الدكتور تورية أقرب السبل التي تؤدي إلى تحقيق الحلم الذي راوده طويلا ، وظل حياته كلها يرنو إليه ويوصي العالم بانتظاره .

هذه المسألة بالأديب الغربي الاشتراكي برناردشو ، الذي له دين في أعناقنا نحن الشرقيين - ثقيل ، فقد امتزجت الثقافة الشوثية الفنية بكافة الثقافات ، حتى لقد شهد منتصف القرن العشرين نقلة بعيدة في ذلك الميدان ، كان فضل د شو ، فيها لا يدانيه فضل كاتب ولا أديب .

وحسب الراحل الكبير نخرآ ، وكفى فنه تكريماً ، أن انتقل أدبه الأنيق الرائع إلى كل لغة حية ، واحتل فيها مكاناً مرموقاً . . . و د شو ، فإن إيرلندي بموطنه الأصلي ، بيد أن له في كل بلد وطن ، ومدرسة ، وتلاميذ ، وسوف يظل حياً آلاف السنين ، لا بنفسه ، فقد خبت قوتها الملهم إلى الأبد ، ولا بجسده ، فقد همد منذ بعيد ، ولكن في التاريخ ، وتلك هي الحياة .

عشرة آلاف بيتين

دخل شاعر من أهل الرى يقال له أبرزید علی عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، فأنشده هذين البيتين وهما :

اشرب هنيئاً عليك الناج مرتفعاً من شاد مهر ودع غمدان لليمن
فأنت أولى بتساج الملك تلبسه من هوذة بن علی وابن ذی یزن
فأمر بعشرة آلاف درهم جائزة علی هذين البيتين . ودخلت لیلی الاخیلیة علی الحجاج فأنشدته :

إذا ورد الحجاج أرضاً مریضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا من القناة سقاها
فقال لها لا تقولی غلام ولكن قولی همام ، وقال یا غلام أعظم أحسمائه .
قالت أحسمها لبلا . فرد علیها قائل بقوله : إنما أمر لك الأمير بشاء . قالت الأمير أكرم من ذلك . فاضطر الحجاج أن یوافقها علی ظنهما فجعلها لبلا علی استحياء وإنما كان أمر لها بشاء .

عجالات الأدب العربي :

ظل الرباعية في البيان

لفهيدة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمي

مدرس بالأزهر

إذا صعدت النظر وأمعنت التنخل في منظوم الأدب العربي ومشوره ، وجدت
القرائح في نتائجها تتدرج مع البيئة ، وسعة الحضارة ، وفسحة الصناعة الفنية
والأداة البيانية .

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی
* * *

وأصدق ما يسعف القارىء - حتى لا يخالف ما نذهب إليه في عجالتنا -
معارض الرياحين وملاعب المورقات وفتان الزهر ومياس الغصون وملاح
الورود وظلال الحدائق وجداولها ، مما أثر في أحاسيس الشعراء وأخيلتهم ، ولون
نثر الأدباء وبيانهم .

ذلك لأن القرائح العربية ما إن تفتحت لها زهرة المقان وسحت الحضارة
واخضوضرت ، الأقاليم ، وازدانت بالحدائق وتوزعت المواهب بين فراديس
، الأندلس ، وشواطئ ، النيل ، ومسائل ، الأبلّة ، وسنديسات ، غوطة
دمشق ، وجمال ، شعب بوان ، وسحر ، صغد سمرقند ، ، حتى لف الشعراء
والمكتتاب فتون وجنون بالجمال المورد والخلاية المنداة والطيوب الشذية . ماء
وظل وروح وربحان . و ، شقائق نعمان ، .

ومنا لهج الشعراء وأجاد الكتاب وطيروا أوصاف السوسن والأذريون
والشقيق والبهار والأخوان والخيري والنسرين والخلاف والثلوفر .

وأبدعوا في وصفهم للبنفسج والرجس والياسمين والآس والزعفران .

وبعد أن كانت طاقاتهم مقطعات أو أبيات تعبر في خرياناتهم أو مدائحهم
أو تشبيهاتهم حملهم الشعور بالجمال على أن يخصصوا الرياحين بقصائد ورسائل
بل زادوا على هذا ونخصص بعض الشعاعين والناثرين والكاتبين في حسان
الطبيعة في لدات الحقائق وناشرات الطيب ومضجعات النسيم .

وفوق هذا تفننت القرائح وتناوحت وأمعنت في الإخلاص بعرائس
الروض ، فجعلت منها شعبا وفرقا تشبكت الأهواء حوالها وتعلق بمحاسنها ، هذا
يفتصر للورد وذاك بفضل الياسمين والآخر يروج للرجس ويمدح طريفه .

وفي كتب المحاضرات ، عقدت مناظرات ومخاصمات كانت بطولاتها
للرياحين ، ومحور الصراع والمفاخرة للآس أو الورد أو الياسمين .

وكأنى بالشعراء والكتاب - حين وجدوا أفتية الملوك والأمراء قد نخلت
على قنهم - انصرفوا إلى مملكة الرياحين يتوجون منها ما يحبون وينتصرون لمن
يحدون في وجنتاته وميساته ما يرضى إحساسهم ويريح جوانحهم ويمتدح أبصارهم
ويمسح عنهم غناء الحياة وجهامة الجسد في كسب العيش ولاعجات الضيق
بالحياة والاحياء .

وزاد شغف الشعراء والكتاب ، واضطرتهم الكهم في سوق الرياض وظلال
الحقائق ، حتى ليخيل لمن ينقب في نتاجهم ، أن الشعراء والكتاب أقاموا من
الرياحين أحياء يخاطبونها ويشكون إليها فتحن ويمدحونها فتعجل ويتاجونها
فتسمع ويظربون لها فتطرب . ويخافون رقيبها ويحذرون عيونها
ويخشعون لطلعتها .

ولقد أسرف الشعراء والكتاب بعد العصر العباسي الأول وبالغوا وصنعوا
وتكلفوا وأرهقوا قرائحهم ، حتى ضيعت الصناعة على بعضهم كثيرا من جمال
الوصف ودقة التعبير والتشبيه والتصوير ، وحظ البيان المنشور من طاقات الرياحين
لا يقل عن البيان المنظوم .

ويكفي أن نذكر (ابن يرد الاصغر) ثم نشير إلى رسالة له أجرى فيها
التفاوض والتحاور ، ثم قدم فيها الورد على الرياحين في مجلس عقده لرؤساء النوار
والأزهار ، منها النرجس الاصفر والبنفسج والبهاء والخيري .

ثم انتهى بأن عقد الرئاسة للورد ، بعد أن أجرى على السنة الإبطال وجه
التفضيل ، ويضيق المقام عن نقل رسالة المولى الفاضل تاج الدين البائي المتوفى
سنة ٧٠٦ في المفاخرة بين النرجس والورد .

وكذلك ما جاء في الحريدة للعباد الأصمغاني من رسالة تفضيل الورد .
وإنا لنقبس بعض ما جاء على السنة الشعراء لندل على صناعة بيانية تأثرت
بمفاتيح الطبيعة الشذية لأبي العلاء صاعد الاندلسي في وردة .

وردتك يا سيدي وردة يذكرك المسك أتعاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها
ولأبي طالب الرقي :

وردة في ثياب معطار حيث بها في بديع أسرار
كأنها وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار

ولشاعر :

كأنما الورد لما بدت في كف من أهوى ويهواني
حمة خديه وفي وسطها صفرة لوني حين يلتقاني

ويقول العسكرى :

أفضل الورد على النرجس لا أجمل الانجم كالشمس

ويقول أبو دلف :

أرى ودمك كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
ومن الأمثلة التي تشهد باستئثار الروض واستيلاء الرياحين على عواطف
الشعراء ما قاله التنوخي .

أما ترى الروض قد وافاك مبتسما ومد نحو الندامى للسلام يداً
فاخضر ناضر في أبيض يقق واصفر فاقع في أحمر نضداً
مثل الرقيب بدا للعاشقين ضحى فاحر ذا خجلا واصفر ذا كمدا
ومن شعر كشاجم في قصيدة جيدة :

وروض عن صنيع الغيث راض كما رضى الصديق عن الصديق
كأن غصونه سقيت رحيقاً فاست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه مداهن من لجين للخلق
يذكرني بنفسجه بقايا صنيع اللطم في الحد الرقيق

وفي النرجس لصفي الدين الحلي :

أقول و طرف النرجس الغض شاخص إلى وللنمام حول الممام
أيارب حتى في الحدائق أعين علينا وحتى في الرياحين نمام
وإني حين أوتر في استشهاده ذلك الضرب من الوصافين الصناعات لا أغفل
إعجابي بلفظات العباقرة من أمثال البحري .

أناك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلمها
وما ضحكة الربيع إلا بسمات ، النوار ، .

ولست بناس عثرات ، النواصي ، ولا نفحات ، ابن الرومي ، أو وصفيات
، ابن المعتز ، أو طاقات ، ابن خفاجة ، ويكفي في عجائتي هذه الإشارة ، فليس لدى
من عدة البحث غير المعلق في الذاكرة ، وفراغ الصحيفة يضيق بالمزيد .

كيف ندرس الأدب

للمؤستاذ أحمد محمد صفر

الطالب بكلية اللغة العربية

هذا رأى فى دراسة الادب للكاتب

تلك الآثار من نتاج الادباء هى التى أعنيها من كلمة « الادب » ، فنحن فى عصر أصبح فيه تحديد منهج البحث لازمة للكاتب والباحثين ، ولم يعد مُساغاً ذلك الشبوع فى الفكرة والاتساع فى دوائر الدلالات والتساع فى إطلاق الاسم على المسمى وما يحاوره ، وما يمت إليه بصلة وأهمية ، وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ليتمكن الإنتاج وليتأى التوافر على العمل ويصير الدرس أكثر نفعا وأقرب متناولا ؟

وبدهى أن تولد من المادة الواحدة مواد متعددة ، فبعد أن كان التاريخ شاملا لكل ما يتصل به من سياسة واجتماع وأفكار ومذاهب وعلوم وآداب ، أصبح التاريخ مقيدا بكونه تاريخ سياسة أو تاريخ فرق أو تاريخ علوم أو تاريخ آداب ، فهذه كلها فروع كانوا يطلقون عليها اسم التاريخ . وكفى !

وهذا العمل نفسه قد حدث للأدب ، إذ كان يطلق على كل العلوم العربية بما فيها من نحو وعروض وبلاغة ، وكانوا يقولون عن الادب : ، هو الأخذ من كل فن بطرف ، وليكن الدقة العلمية جعلت هذه المواد تنفرط من حول الادب ، فضاق معنى هذه الكلمة ، وأصبحت تطلق إطلاقاً فنياً على تلك الآثار والنصوص الادبية فقط ، سواء أكانت شعراً أم نثراً ، رسائل أم خطباً ، أم محاورات .

فدراسة الادب هي دراسة تلك النصوص... والقصد من هذه الدراسة تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الادبي والسمو بالعواطف النبيلة بعد فهم هذه النصوص ليسهل الصب على قلبها والتوليد من معانيها والتشبث بجمال ألفاظها وتراكيبها: ولكن نفس الغيور على الادب تقطع حشرات عند ما ينظر إلى طرق دراسة الادب في معاهدنا على اختلاف أنواعها. وإن كل ذى حذب على تلك الآثار ليتلوى المسأ على مصير هذا الفن الرفيع حينما يتخيل الظلام المخيم على هذا الركن من التراث العربي.

وما أحسب الناس إلا قانعين بما هم فيه من خلط لا يرضاه منصف لادب لغة حية راقية... وبزبدني إشفافاً أني أسمع عن محاولات لإصلاح الدراسة في كل المواد، ما عدا الادب، فكأن هذه المادة بلغت حد السكال، ولم تعد في حاجة إلى النظر والتنظيم... والله يعلم أن تلك هي المادة في كل شيء... بل أستطيع أن أقول: إن الادب لم يدرس ولم يعرف عنه شيء في دور التعليم... إذ أن الذي يدرس الآن هو تاريخ الادب ممزوجاً بفقهاء اللغة... ولم يتقف الأمر عند هذا، بل قطعت أوصاله، ومزق شرمزق بتقسيمه إلى عصور ومراحل تتبع الانقلابات السياسية وتغييرات الدول...

هذان هما منبع النقص في دراسة الادب العربي...

أولاً: غلبة التاريخ على مذكرات الادب.

ثانياً: تقسيم الدرس تبعاً للعصور والانقلابات السياسية...

وبذلك يضع الادب باعتباره مادة مستقلة بين هذه الاخطاء التي ارتكبت ولا تزال ترتكب في كل كتاب يدرس على أنه في مادة الادب... ولا شك أن هناك مدافعين عن ذلك الوضع يقولون: إن التاريخ يبين لنا مراحل الآداب وأطوارها... ودراسة البيئة تعيننا على دراسة الادباء وفهم كلامهم... ومعرفة الحالة السياسية تساعدنا على معرفة الحالة الادبية... ثم تقسيم الدرس باعتبار الانقلابات والدول يساعدنا على التحليل والتعمق، إذ أن لكل عصر ميزة وطابعاً... ولكل دولة تقاليد... والادب صورة من هذه الميزات والطوابع والتقاليد... وهذا الدفاع لا يغني شيئاً ولا يفيد فائدة، فنحن لا نطلب وضع

كيف ندرس الادب

٢٨٧

حجاب على التاريخ وطمساً لحقائقه .. كلا .. ولا نطلب الاكتفاء بهذا القدر المختصر .. بل نريد التوسع في التاريخ التحليلي ، فهو خير معين على دراسة الادب كما نطلب فصل المعلومات التاريخية عن كتب الادب فصلاً تاماً ، فيدرس تاريخ الادب على أنه مادة مستقلة .

وأما الادب ، فإنه النصوص الأدبية ، وهي الكنز الباقي لنا من مخلفات السابقين ، فحرام أن تضيع درره في أطلال التاريخ ، وتثر جواهره في الطرق والسراديب ، تطوها الأقدام وتمر عليها الأعين مر الكرام - إنك حينما تقلب كتاباً من كتب الادب التي في أيدي الطلاب تأخذك الشفقة ، ويستولى عليك اليأس حينما ترى شجرة القبائل العربية وتاريخ اللهجات .. وأمثلة من العجاجة والكساسة والطمطمانية ، ونشأة اللغة .. والخلاف الطويل بين العلماء في هذا الموضوع .. وهكذا .. ثم تجد في ذيل الكتاب نتفاً من الشعر وقطعاً من النثر مقتضبة مجتزة ، يحفظها الطلاب للاستشهاد بها عند ترجمه الأدباء .. أو يرثونها أمام اللجان في الامتحانات الشفوية .. دون فهم ودون بحث عن ناحية الجمال فيها .

هذه جنابة خاطئ التاريخ بالادب .. وسأعرض عليك الجنابة الفنية الأخرى التي تجنّبها الدراسة الحالية على تلك الآثار بتقطيع أوصالها : وتجزئة الأغراض : إلى جاهلية وأموية وعباسية وغير ذلك .

وما أعتقد أن هناك نفعاً ولا فائدة في هذا النوع من الدرس ، لأن عنصر المقارنة والموازنة مفقود .

وسبيل البحث في الاخذ والنقل والسرقة غير ميسرة . فإن المنهج يفرض في كل عام عصراً من العصور بأدابه القليلة وتاريخه الكثير . فتجد المنهج مشحوناً بالمباحث التي لا تمت إلى الادب بقراءة ، والمادة الأدبية نفسها ضئيلة ومقصومة الظهر ، فكأنك تطلع على عضو من جسم ، وذلك تشويه لعرض الادب ، وإفساد لثمرته المرجوة ، وإملاال للناظر فيه ، إذ هو مجبور على مطالعة آثار الجاهليين مثلاً فيرى جزءاً من كل غرض ، فإذا انتقل إلى العصر الثاني نسي العصر الاول واطلع على عضو آخر منه هذا الجسم . فما ينتهي من العصور كلها ، إلا وفي ذهنه صورة

شوها غير متماسكة الأجزاء ، ولا متشابهة الأطراف ، لأنها لم ترسم على الخيالة إلا مبعثرة لا تقل لى : إن أدب كل عصر يكون مجموعة تدرس على حده لاني ما رأيت روضا من الرياض يطلب منه أن يثبت نوعا متشابهها من الأزهار ، فقد يجمع الزهر المختلف اللون والعبير والحجم والشكل ، ومع ذلك يستمد بهجته من هذا الاختلاف وتطمع النفوس في الانس به لهذا السبب . وهل الآداب إلا إزدهار اللغات تفوح وتنفع وتسر وتبهج ؟ نخذ غرضا كالغزل مثلا واجمع كل ما قيل فيه منذ أول العصور إلى عصرنا هذا ، وادرسه دراسة وافية ووازن بين المعاني المتقاربة ، وأرجع الفرع للأصل ، وتأمل كل تعبير ، وأكشف اللثام عن مناحي الجمال . وأنقد الفكرة واللفظ والمعنى ، وأظهر العيب والنقص . وخبرني أذلك خير وأجدي ، أم دراسة قصيدة من كل غرض . فما أشبه الغرض الواحد بالخيط الممتد ، ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط . فيكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ؛ لأن جماله في تماسكه وتجانسه وفي جوهره ، أما أعراضه فليست حائلا يمنع من تكملة الصورة واستقلالها . فإذا انتهيت من دراسة هذا الغرض فانتقل إلى غرض آخر لتأخذ عنه فكرة كاملة لا مهوشة ولا مجزأة ، وبذلك يمكننا أن ندرس الأدب دراسة فنية تؤدي بنا إلى الغاية المنشودة ، إذ أن الأدب هو ثقة القلوب حينما تهز أوتارها الأشجان ، وهو صوت الشعور يناجي به الجمال ، وغناء الوجدان تحركه أنفاس الفجر ونغمات الزهر ، وهو مع ذلك أنة الثاقل ودمعة المحزون ، ودم الأعصاب التي عصرها الألم ، وشفها العذاب ؛ فهو صورة من النفس البشرية تبين آلامها وآمالها فلا بد من دراسته دراسة نافعة مثمرة مفيدة ، وذلك لا يتحقق إلا بتخليصه من هذه الشوائب ، ودراسة كل غرض كامل دراسة وافية .

فإذا فعلنا ذلك خرجنا أجيالا أكثر نفعاً وأعظم فائدة لا يدورون حول أنفسهم ولا ينتهون حيث بدأوا ، بل يتقدمون ، ثم يتقدمون ؟

[مجلة الأزهر] نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها ، والمدار في هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به ، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْهُمْ نَبِيٌّ

، المذفلون النافعون ،

شغل الأستاذ خالد محمد مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) عشر صفحات منه تحت عنوان (المذفلون النافعون) وقصد بهم الذين يدعون الأمة إلى طريق قد انحرفوا هم عنه ، أو إلى إصلاح قد خرجوا به عن حقيقته ، وعلل تسميته إياهم بالنافعين بأنهم ينفعون أعداء الأمة ، فقال :

« فالعالم الذي ينحرف بالدين عن غايته التي هي إنهاض البشرية ، وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والإلحاد والاستعمار . والرجعي الذي يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الشعب ، كالومياة المخطئة ، لا تدب فيها الحياة ، ولا يجري في عروقها دم جديد ، مغفل نافع للاستعمار والجهل .

إلى أن قال : « ولكن شر سبب في سلالة المذفلين النافعين ، وأبعدهم أثراً في مصير الأمة ومستقبلها ، أولئك المبشرون بالروحانية ، والداعون لها ، فلتحدث إذن عن هذه الروحانية ، هذه البدعة التي تطل علينا بوجهها الضامر كلما أذن بيننا مؤذن : حتى على الحياء .. وأود أن يكون مفهوماً ، إننا لا نسوق الحديث عن هؤلاء سخريه وتفكهاً ، وإنما هم وباء ، نريد أن نلفت الأنظار إلى مكلفته ، وتطهير البيئة منه . فإن هذه الفكرة البلهاء ، التي تزعم أن الروحانية هي علاج الشرق الوقائي ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، المنعمة بالرغد والرفاهية . هذه الفكرة الساذجة تجد لها أنصاراً كثيرين ، وتخضع حتى بعض الذين كان يظن أن لهم من ثقافتهم وعمولهم عاصماً ، .

يقول مؤلفنا إن القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، فكرة بلاء فقد « أثبت العلم بتجاربه التي لا ريب فيها ، أن

أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته ، وتركيبه وأجهزته ، وليست شيئاً يناله صاحبه بدعوة صالحة ، أو موعظة رقيقة ، وليست شيئاً يهبط من السماء ، فيصيب أقواماً ويخطيء آخرين ، وما السلوك البشرى كله : خيره وشره ، صالحة وفاسده ، ألا وليد حالتنا الصحية ، وحالتنا العقلية .

يقول الأستاذ أن من البلاهة القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، وأنها فكرة ساذجة وجدت أنصاراً كثيرين !
نقول نعم وجدت أنصاراً كثيرين في الرعيل الأول منهم الأنبياء والمرسلون ، ويلهم الفلاسفة الأولون ثم الحكماء الإسلاميون ، ثم خلفاؤهم الأوروبيون تغص بهم جامعاتهم ، وأنديتهم ووراءهم جميع عقلاء الأمم في جميع أقطار العالم ؛ وأنه ليس صعب على الإنسان أن يتصور أن جميع هذه العقول تستوحيها فكرة بلهاء ، وأولى بالعاقل وخاصة إذا كان قريب عهد بالعلم والفلسفة أن يتهم نفسه بالبله قبل أن يتهم هؤلاء الأساطين به . وهل مما يفهم قول الأستاذ بأن الروحانية أثر من آثار المادية المنظمة ، المفعممة بالرغد والرفاهية ؟

إن الروحانية عتيقة أولية يصادفها الإنسان عند أحط التنبائل المتوحشة التي لا تحصل على غذائها إلا ما تنفثه الأرض من أعشاب ، وما تصيده هي من بعض الحيوانات ، وما يلقه إليها البحر من جثث الأسماك الكبيرة الميتة ، وهم أشد تمسكاً بالاعتقاد في الروحانية من سكان القصور المشيدة المحاطة بالحدائق الغناء ؛ فأية مادية منظمة ولدت لهم فكرة الروحانية وغرستها في قلوبهم إلى الحد الذي هم عليه ؟ وأى رغد من العيش ورفاهية من الحياة لديهم توصلهم إلى هذه التخيلات الراقية من العقائد المجردة ؟

وهل من الحكمة أن عتيقة يتخيل أنها خدعت العالم كله عالمه وجاهله ، متمدنه ومتوحشه ، عشرات لا تحصى من القرون تعامل هذه المعاملة من الاحتقار ، وتمحي من سجل الحقائق بحجة قلم في رسالة كتبت لتؤثر في العقول ، وتفتح طريقاً إلى عهد جديد ؟ ثم قال :

« فالمجتمع المتمتع بعافية اقتصادية ، هو الذي تزدهر فيه الفضائل ، أما المجتمع السغبان المضنى ، فلا وجود فيه للفضيلة ، ولا للروح . إن الرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد ، وهو الخلايا التي تحيا بها الشعوب . »

نقول هذا كلام أشبه بالنثر الشعري منه بالتحقيق العلمي ، والمشاهد المحسوس

من حالات الناس غير هذا ، فإن الذى لا يجد ما يكفيه الحاجات الأولية لا يتوسع في الموبات إلا بتدر محدود ، خلافاً للتمتعين بعافية اقتصادية ، فانهم يفرقون الى أعناقهم ، ولا يبالون بسبب احتقارهم لمن دونهم أن يكونوا أمثلة سوء لغيرهم . وكل الجماعات التي جاهدت لترقية الأوضاع الحكومية والاجتماعية كانت من طبقة الفقراء تحت زعامة رجال من درجتهم . ناهيك أن الذين بادروا الى قبول هداية الأنبياء ، ووقفوا نفوسهم على نصرتهم كانوا من هذه الطبقة ، على حين أن الذين كانوا يتمتعون « بالعافية الاقتصادية » كانوا يعملون على إبطال هذه الدعايات الإصلاحية بكل الوسائل الإفسادية .

وهل ينسى أحد أن السواد الأعظم من مكتشفى أسرار العلوم ، ومخترعى أنفع الآلات والأدوات ، كانوا ولا يزالون من المحرومين من الأموال الذين يكادون لا يجدون ما يكفيهم من مقومات الحياة ؟ يقول الأستاذ : « إن الكلمة الأخيرة التي سنقولها للشعب دائماً هي أن طاقته الروحية وليدة طاقته الاقتصادية ، وأنه ما لم تطاوعه الفرص ، ويحي في غير حرج ولا فاقة ، فلن تكون له روح » .

ويقول : « هكذا نقول ، وبه تؤمن ... ولكن الطريق إلى هذا الإشراق الروحي ، وإلى السكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة : ما هو ؟ أما في رأينا فهو الرخاء الاقتصادي الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا السياسية وتترق) فبهيات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته ... ثم قال : « إن الروحانية التي ندعو إليها لا تبدأ من نفسها بل هي تبدأ من المعدة الممتلئة فاذكروا هذا جيداً ؟ »

نقول : ذكرناه جيداً كما أراد المؤلف ، ولكنه ليس بحق ، فأمانا جميع صاغة الأمم من رسل وطلاب ملك ، فما قالها منهم واحد ، بل قال خاتم المرسلين محمد بن عبد الله وهو صانع أعظم أمة ظهرت في الأرض : « حسب أحدكم من الطعام لقيمت يقمن صلبة » .

ويقول الأستاذ خالد : « إن من البله الزعم بأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن العلم قد أثبت أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته وتركيبه . فليس السلوك البشرى كله إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقلية » .

ونحن نقول : لو كان الامر كما يقرره الاستاذ ، لكان كل صحيح الجسم سليم العقل على أكمل ما يكون من سمو الأخلاق ، ولكن قد يكون المشاهد المحسوس غير ذلك ، فكم من صحيح الجسم عبقرى العقل ، وهو على أحسن ما يشاهد من انحطاط الأخلاق ؛ وكم من سقيم الجسم محدود العقل ، وهو على أرقى ما تتخيل من سمو الخلال ، وكرم الطباع . وبين ذلك حالات شتى يحار فيها الفكر ، ويعجز عن تعليمها العلم ، ذهب فيها العلماء مذاهب متضاربة .

ذلك لأن الروحانية مستقلة عن الجسم ، لا تمت إليه بسبب ، كيف لا وهى من طبيعة أرقى من طبيعة المادة فلا ينطبق عليها ما ينطبق على هذه . وقد لفتت مسألة وجود الروح بعد اكتشاف التويم المغناطيسى منذ قرن أنظار العلماء فأمنوا بوجودها مستقلة عن الجسم ، وزاد عديدهم فى جميع البلاد المتقدمة ، وألف الباحثون فى ذلك مئات من الكتب ، وأنشئ لمتابعة البحث فيها ، ونشر أدلة وجودها بالأساليب الحسية الجديدة مئات أخرى من المجلات ، ومنها ما مضى عليه قرابة قرن من الزمان . فلا يجوز جهل أو تجاهل كل هذا الانقلاب ، وخاصة للنتسبين إلى الدين ، وإصلاح النفوس . فإن هذا الإغفال فضلا عن أنه يومئذى القارىء بأن المؤلف لم يصل إليه خبر عن هذه النورة العلمية الكبرى ، أو أنه يتجاهلها ترويجا لمبدأ المذهب المادى ، وكلا الأمرين شائتان لمن يتصدى لمفاجأة الجماهير بمثل ما يذهب إليه فى أخص ما يتعلق بالحياة الإنسانية .

ولكن الأستاذ خالد يفهم من كلمة الروحانية شيئا غير العقيدة وهو السلام والإخاء والمحبة التى يفيضها على الإنسان تيسر العيش ، وهدوء النفس ، وما يحيط به من أمن وطمانينة ، على النحو الذى تكون عليه الحال فى الجماعات النشطة الحرة ، وهو فهم لم يسبق إليه ، ولن ينازعه أحد فيه ، لا لأنه صادم محله ، ولكن لأن المقام لا يسمح بإضاعة الوقت فى الصغريات اللفظية .

ولكن الذى يهم القارىء أن يدركه هو الغرض الحامل للأستاذ على التوصل بكل هذه المقدمات للوصول إليه ، وقد أحفينا فى البحث عنه فوجدناه مكنيا به ، ثاويا فى اطواء قوله : « أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباءة . وما لم تتغير (أوضاعنا الاقتصادية وتترك) فهيات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته » .

فتبين أن الأستاذ يرمى بعد كل ماذكره إلى وجوب تغيير (أوضاعنا الاقتصادية) ولم يزد، وبدلاً من أن يسرع بشرح ما أجمل، أخذ يحول بالتمارىء، وهو يتلف على معرفة النتيجة، في شئون شتى من مساوئ الكهانة في مختلف العصور، وما جتته على الإنسانية من تعطيل تطورها، ومن معاملتها مخالفيها بالعسف والاضطهاد، ومن توسلها بالمسجد والمذبح لتقويض المجتمع. وتوسع في اتهامها بكل ما يصيب الناس من شر، وتقل في ذلك ما أثر من أعمالها في العالم الغربي من تعطيل كل المحاولات التي بذلت لترقية الجماعات، أليس كان يجب عليه بدل كل هذا، وقد استوعب ثلاثة وعشرين صفحة، أن يسرع بالتمارىء إلى شرح ما أجمله في عبارة (تغيير الأوضاع الاقتصادية) التي ظهر أنه يقصد بها إبطال الرأسمالية الفردية، أى إبطال أن يكون لأحد رأس مال خاص، وأن يكون مال الأمة كله تحت يد الحكومة يشترك جميع الأفراد في الانتفاع به تحت إشرافها.

وهنا أخطأ الأستاذ خطأ كبيراً حين ظن أن حكومة العمال في إنجلترا ألغت الرأسمالية الفردية فقد قال:

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، ولا بد أن يكون هذا هو الذى حدث، وإن السياسة التي سلكتها حكومة العمال لتشهد بذلك، فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى، وتتبع أسباب ذلك فوجدتها تكن في (الرأسمالية الفردية) التي تسخر كل امكانيات المجتمع لمطامعها! ولم تفكر حكومة العمال طويلاً، وقررت (فوراً) الانتقال بالمجتمع الانجليزي - لأول مرة في تاريخه - من اليمين المتطرف إلى اليسار المعتدل، أى من الرأسمالية الكنود الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المتساهلة، ولم نعد نسمع صيحات الجوع التي أزعجت بريطانيا العالم بها عقيب النصر، كما لم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للعمارات ومصالح الحكومة واحتلالها لينام فيها ويسكنها، لأن النظام الاشتراكي التي طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبداً، وللشردين مأوى».

نقول إن حكومة العمال لم تلغ الرأسمالية الفردية، ولو فعلت لاضطربت أسواق العالم كله، وكان له صدى لا يسكن حتى تلتئم العلاقات التجارية بين إنجلترا والبلاد التي تعاملها وليس ذلك بالأمر الهين، بل هو حادث اجتماعي يشعر بأثره جميع الناس حتى البعيدون منهم عن التجارة. فهل أحس أحد بشيء من ذلك هنا ونحن من أخص

المتعاملين معها وخاصة في محصولاتنا القطنية . وكل الذي حدث أن حكومة العمال أمت بعض الصناعات المعدنية ، أى جعلتها تابعة للحكومة دون الأفراد ، ولو كان مكانهم المحافظون لأموها كما فعلوا لأن المصالح العامة تقتضى ذلك .

أما (الرأسمالية الفردية) فهى لا تزال أساس النظام المالى فى إنجلترا وليس لها من خصوم غير حفنة من الشعب الإنجليزى تمذهبوا بالشيوعية منذ سنين ، كان يملهم عضوان سقط أحدهما فى الانتخابات التى جرت منذ نحو خمس سنين ثم سقط الثانى فى الانتخابات التى تلتها ؛ فخلا المجلس من أنصار الشيوعية ، ولم يبق غير حزب العمال ، وهو ليس بشيوعى بل ولا باشتراكي تام الاشتراكية . فهو اشتراكي من ناحية النزاع بين قيمة العمل ورأس المال ، ولكنه كغيره من سائر الأحزاب يقر الوراثة والملكية الفردية .

أما حزب العمال فلم يأت به للحكم الأمل الشعب الإنجليزى لحكومة تمثل الطبقات الفقيرة ، لشعوره بأن الحالة الاقتصادية بعد الحرب تستدعى وجود حكومة تعطف على تلك الطبقات لمكافحة الغلاء من جهة ، وتدارك حاجة العمال بزيادة أجورهم من جهة أخرى . والشعب الإنجليزى شعب حكيم ، ليس كغيره من الشعوب يشوب طبعاته تناكر ، ولكنه شعب متعاطف الطائعات يحس بعضها بحاجات بعض وتعمل على توفيتها ، اعتقاداً من الجميع بأن القلق الاجتماعى لا يقتصر على ناحية دون أخرى ، ولكنه يعمها جميعاً ؛ وهو لم يصل الى هذه الدرجة من الآداب الاجتماعية عفواً ، ولكن بعد أن ذاق مرارة ذلك القلق الاجتماعى فى أدوار شتى . فالأمر الذى نعجب منه ظن الأستاذ المؤلف أن المبالغة فى تعظيم مبدأ من المبادئ ، وتجاوز الحدود فى بيان آثاره ، يغرى الناس على الأخذ به دون أن تعدم الحوادث لقبوله ؛ وهو خطأ كبير ، لأن الأمم فى سيرها نحو المثل الأعلى من الاجتماع تمر بأدوار شتى لها شئون خاصة لو استبدلت بها أرقى منها مما لم يدفعها التطور الطامع الى ، لم تستفد منه شيئاً ، بل قد يفسد عليها ما هى فيه من النظام النفسى . وعليه فإن سوق المبادئ والأصول سوق البضائع ، وعرضها عرض السلع دون أن تدعو إليها ضرورة حيوية ، أو تطور جديد ، فليس من الحكمة فى شيء ؟

دِفَاعٌ عَنِ النَّعْصِبِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

الناس يكرهون التعصب ، ويصفون المتعصبين بضيق الأفق ، ويتيسون تقدم الأمة فكرياً بتميّس يرجع إليه ، فإذا كانت الأمة متعصبة شديدة التمسك بمبدأ أو فكرة معينة في العلم أو العتيدة دل ذلك على أنها لم تزل ذات عقلية « بدائية » ، وأنها تعيش في طرف من الحياة وحدها منعزلة عن روح التجدد التي طبع الله عليها العالم ، وجعلها سنة الدنيا ، أما إذا كانت الأمة أو الجماعة متساهمة متغلبة للأفكار والآراء دون تشدد أو تزمت ، فانهم يصفونها بأنها أمة أو جماعة راشدة صالحة للحياة .

وإطلاق النول على هذا النحو مجافاة للصواب ، وذلك أن التعصب للآراء والمذاهب الفكرية إما أن يكون نتيجة الإيمان العميق بها بعد تأملها وإدراكها إدراكاً صحيحاً ، وإما أن يكون نتيجة تقليد وأخذ دون فهم وإدراك لما انبنى عليه الرأي ، أو نظر إليه التماثل به .

فالأول محمود ، بل هو واجب ، بل هو قضية العقل ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن صاحباً لا يستطيع أن ينفك عنه ، أو يتخلى عن لوازمه ، فإن المعارف التي يصل إليها الإنسان بالنظر والفكر إما أن تكون متعينة في نظره فيكون التمول بها واجباً عقلياً لا مناص منه ، وإما أن تكون راجحة وغيرها مرجوح فلا يخلو أمر الناظر فيها إما أن يأخذ بالراجح ويترك المرجوح أو يأخذ بالمرجوح ويترك الراجح ، ولا شك أن العقل يقتضى بالأول دون الثاني .

ولهذا تعتبر القاعدة التماثلة « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ » يحتمل الصواب ، قاعدة منصفة عادلة إذا صدرت من مجتهد ذي قوة تفكيرية ، يتحدث عن مذهب وصل إليه بطريق النظر بأعمال الفكر والاستبطاط .

منصفة لأن القائل بها أنصف نفسه ، وأنصف غيره ، فأما إنصافه لنفسه فانه لا يسعه وقد رأى ما رأى بعد النظر والتأمل أن يتحاز إلى غيره ، ويناقض نفسه ، فهو متعصب لما رأى عن دليل وبرهان ونظر ، فلا لوم عليه في تعصبه وإنما يلام على تسامحه لو فعل ، لأنه مطالب بتكريم عقله ، وألا يناقض في حكمه . وأما إنصافه لغيره مع تعصبه لنفسه فلأنه احتاط في حكمه فقال : قد أكون مخطئاً برؤيتي غير الحق حقاً ، لقصور في لم أتدبته ، أو لتقصير لم أقصده ، وقد يكون غيري تبين ما غاب عني ، وعرف ما لم أعرف .

وهذا هو المعنى الذي حمل مالك بن أنس على أن يرفض ما عرضه عليه أبو جعفر المنصور من حمل الناس على ما في الموطأ ، فمالك رضى الله عنه معتد بالموطأ ، مطمئن إلى ما فيه ، ولكنه ينصف غيره كما ينصف نفسه ، ويترك الفرصة للآراء والمذاهب فلعل شيئاً قد وصل إليه فيه ضعف لم يتبينه ، ولعل شيئاً قد وصل إلى غيره يبدل حكماً حكماً به .

أما الثانى ، وهو التعصب الذى يكون نتيجة ميراث وتقليد فهو مذموم ، لأن صاحبه متجاوز حقه ، خارج عن طوره ، إذ معنى تعصبه أنه يرى كذا هو الحق بعينه ، وأن غيره هو الباطل . مع أنه لم يتصور الأمر تصوراً يمكنه من الحكم .

ولهذا تعتبر القاعدة التى أسلفناها غير منصفة إذا صدرت من مقلد : لم ينصف فيها نفسه فيقف عند حده ، ويعرف قدره ، ولم ينصف فيها غيره ، بل حكم فى الأمرين بما لم يعرف ، وقضيه الإنصاف أن يكون الأمرين لديه سواء .

ولو أردنا توضيحاً لذلك لما لنا الأمر برجل أعمى معه ثوب فقال له أحد الناس هذا الثوب أبيض ، وقال له آخر هو أحر . وهو غير مستطيع أن يحكم بصحة هذا القول أو ذاك لأنه فاقد وسيلة الحكم وهى البصر .

نعم قد يثق بأحدهما ثقة خاصة ، فيقدر حكمه ، ويرجحه على حكم الآخر ، وهذا هو ما يعتمد عليه المقلدون للمذاهب إذ يقومون بأمتهم ما لا يثقون بغيرهم ، كما يثق هذا الأعمى بأن فلانا هو الصادق بعينه .

ولكن هناك فارقاً : ذلك أن الأئمة الذين يتردد العامة بينهم كلهم موثوق بهم ، وإلا لما قلدهم المقلد ، وهم مختلفون فى درجة الفهم أو طريقتهم ، والمقلد لا يستطيع

أن يحكم ، هل طريقة هذا في النظر أو درجة فهمه هي المثلّي أو الأقوى ، لأن هذا أيضاً نظر ، وهو غير قادر عليه ، فأقصى ما يرمعه أن يقول سمعت كثيراً من أهل القدرة أو الشهرة بقررون أن فلاناً مبرز في فتمه ، دقيق في نظره ، وهذا تقليد في التقليد .

هذان هما نوعا التعصب عمدوحة ومذمومة ، والمتعصب من النوع الأول يسهل إقناعه وإرجاعه إلى مذهب غيره بالدليل والبرهان ، لأنه لم يتعصب إلّا لما أدرك وفهم ، فاذا أدرك ما يحوله ويغير فهمه قبله ورجع إليه ، لأنه متصف بعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التماهى في الباطل .

أما المتعصب من النوع الثاني فلا سبيل إلى التفاهم معه ، لأنه لم يعتقد ما اعتنق عن دليل فيرجعه الدليل ، وإنما اعتنقه ثقة بقائله ، فهو لا يكف عنه ما دامت هذه الثقة قائمة في نفسه .

مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامي

وقفقدان التعصب يكون في حالتين :

الحالة الأولى : فقدان حرارة الإيمان بالرأى للانصراف عن موضوعه ، والاشتغال عنه بغيره ظاهراً أو باطناً ، فالاقتصاديون وأهل السياسة وأماهم من المشتغلين بأمر الدنيا ، لا يعنهم أمر الفقه أو الآراء الكلامية مثلاً ، فتراهم لا يكثرثون بهذا الشأن ، ولا يتعصبون لرأى من الآراء فيه ، ولو كانوا من أرقى الناس عتولا ، وأدقهم فهماً وإدراكاً ، وذلك لأنهم لا يجدون في أنفسهم رغبة في دراسة هذه الموضوعات ، فقد انصرفوا عنها إلى غيرها انصرافاً ظاهراً ، وقد يكون الانصراف باطناً غير ظاهر ، كما نراه في محترفي العلم والتدين ، فظاهر أمرهم أنهم متحمسون للحقيقة في أمثال هذه القضايا ، لهم غيرة عليها ، وعناية بها ، والواقع أنهم عن ذلك مشغولون بأنفسهم وأموالهم وأحوالهم ، فهم لا يهتمون وزناً لما يشتغلون به ظاهراً ، ولا يتحمسون لهذا الرأى أو ذاك مع علمهم بوجه الحق ، فتراهم يتظاهرون بأنهم تاركون للتعصب ، مترفعون عن التزمّت والتشدد ، والله يعلم أنهم عن الحق لمشغولون .

وهذا أخطر ما تصاب به أمة في علمائها وأصحاب الرأي فيها ، وقد عبرنا عنهم بالمحترفين ، لأن الظروف قضت عليهم وعلى الناس أن يكون أهل شأن من الشئون ، بينما هم لا يتصدون إلا غايتهم وما يتغنون من عرض الدنيا ، متخذين ما هم فيه شعاراً يخفى حقيقته .

الحالة الثانية : حالة الجاهلين بشيء فهم لا يعرفون منه قليلا ولا كثيراً ، وليس لهم قدرة على تتبع أصوله وأسسها التي أقيم عليها ، فهم لذلك لا يتعصبون له ، ولا يشتركون في نصرة طائفة على طائفة في شأنه . وقد أنصفوا أنفسهم ؛ وكانوا منطقيين مع قصورهم وعدم استعدادهم . فسكتوا عما لا يعلمون ، وكفوا عما لا يحسنون .

من هذا يتبين أن التعصب ليس كله مذموماً ، وأن التسامح ليس دائماً أمانة على الرقي الفكري واتساع الأفق العلمي . والله المستعان ؟

من طرف الأدب

قال دعبل في طاهر بن الحسين :

أيا ذا اليمينين والدعوتين	ومن عنده العرف والنائل
أترضى لمثل فتى أن يتميم	ببابك مطرح خامل
رضيت من الود والعائدات	ومن كل ما أمل الآمل
بتسليمة بين خمس وست	إذا ضمك المجلس الحافل
وما كنت أرضى بذا من سواك	أرضى بذا رجل عاقل
وإن ناب شغل فني دون ما	تدبره شغل شاغل
عليك السلام فإني امرؤ	إذا ضاق بي بلد راحل

القرآن كما تحدث عنه السنة :

أول القرآن نزولاً وآخره

لفضيلة الاسنان الشيخ فكري ياسين

أخرج الحاكم في المستدرک ، والبيهقي في الدلائل ، وصحاحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : أول ما نزل من القرآن : « اقرأ باسم ربك ، الآيات . » وأخرج النسائي وابن أبي حاتم : أن آخر ما نزل من القرآن : « واتموا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، الآية . »

استغرقت المدة التي نزل فيها القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، فقد بعث عليه السلام ، وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة بعد البعثة ما يقرب من ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالمدينة بعد الهجرة بلا خلاف عشر سنين ، وتوفي وله من العمر ثلاث وستون سنة ، كما اتفق على ذلك جمهور المؤرخين من السلف والخلف ، وما جاء في بعض الروايات مخالفاً لهذا ، فانه مبني على عادة العرب في إلغاء الكسر ، والاكتفاء بذكر العدد الصحيح .

وأثبت الأقوال وأصحها وأشهرها أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو صدر سورة « اقرأ باسم ربك » إلى قوله سبحانه : « علم الإنسان ما لم يعلم » ، ويدل على هذا الحديث الذي معنا ، وحديث الصحيحين في بدء الوحي : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ، الحديث ، وحديث الطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال : « كان أبو موسى يترثنا فيجلسنا حلتاً ، وعليه ثوبان أبيضان ، فاذا تلا هذه السورة : اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، قال : هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكثير غير ذلك من الآثار والأخبار .

وأما التمول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو : « يا أيها المدثر ، والاستدلال له بحديث جابر بن عبد الله ، وقد سئل عن أى القرآن أنزل قبل ؟ فقال : « يا أيها المدثر » فيمكن تأويله بأن سؤال جابر إنما كان عن أول سورة كاملة نزلت من القرآن بعد فترة الوحي ، فبين أنها سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ فإن أول ما نزل من القرآن صدرها ، ويؤيد هذا ما جاء في الصحيحين عن جابر نفسه ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن فترة الوحي ، ويقول : « فإذا الملك الذي جاءني بحراء » ، فإن هذا يدل على أن هذه النصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها : « اقرأ باسم ربك » ، أو يمكن تأويله بأن جابراً استند في إجابته على اجتهاد منه ، لاعلى نص وارد في ذلك ، فتقدم عليه الروايات السابقة ، لأن النص متمد على الاجتهاد .

وكذلك التمول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو سورة الفاتحة ، والاحتجاج له بما أخرجه البيهقي في الدلائل من أن الملك ناداه : يا محمد ، قل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين » حتى بلغ « ولا الضالين » — يمكن رده بأن هذا الحديث مرسل ستمط منه الصحابي ، فلا يتولى على معارضة الحديث المرفوع ، كحديث عائشة في بدء الوحي وغيره ، ويحتمل أن يكون حديث البيهقي المذكور خبراً عن نزول الفاتحة بعد نزول اقرأ والمدثر ، وبعد مجيئه إلى ورقة بن نوفل ، وتحديثه له بما سمعه غير مرة من نداء خلفه ، وبمشورة ورقة عليه أن يثبت عند ذلك النداء حتى يعي ما يلقي إليه .

وأما التمول بأن البسملة هي أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ، فذلك قول لا يصلح أن يكون مستقلاً برأسه ، لأن البسملة ، كانت تنزل في أول كل سورة ، فهي قد نزلت مع صدر سورة اقرأ ، ومع غيرها من السور ، فلا يستقيم انفراطها بالاولية في النزول ، بل يشاركها في ذلك صدر سورة اقرأ .

وقد أراد البعض أن يجمع بين هذه الأقوال فقال : إن أول ما نزل من الآيات : « اقرأ باسم ربك » ، وأول ما نزل من أوامر التبليغ : « يا أيها المدثر » ، وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة .

أول القرآن نزولا وآخره

٣٠١

وهناك بعض أوائل مخصوصة ، نذكر لك طرفاً منها :

فأول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : النجم ، وحكى البعض الاتفاق على أن أول سورة نزلت بالمدينة : البقرة ، وقيل : سورة المطففين ، وقيل : سورة القدر ، وأول ما نزل في الأطعمة بمكة آية الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً » ، وبالمدينة آية البقرة : « إنما حرم عليكم الميتة » ، وأول سورة نزلت فيها بحجة النجم ، وأول آية نزلت في الحز : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس » ، وأول آية نزلت في القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ، وقيل آية : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، وقيل آية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » .

كثر الاختلاف حول آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وتعددت الأقوال في ذلك ، ولم يرد أثر مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون هو الفيصل في هذا الشأن ، والأمر في الواقع لا يعدو أن يكون إلا كما صورته التماضي أبو بكر حيث يقول في الاتصار : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ قال بضربٍ من الاجتهاد ، وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه ، أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه هو » .

ولكن الذي تدل عليه الشواهد الكثيرة ، والروايات المتعددة والتراثيم المختلفة أن آخر ما نزل من القرآن إطلاقاً هو قوله تعالى في سورة البقرة : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ، فقد تكاثرت الآثار في ذلك . واشتمل بعضها على ما يؤكد ويتوهم كقول ابن أبي حاتم عتب روايته السابقة : وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول ، فهذا يؤيد أن هذه الآية كانت آخر قرآن نزل ، فضلاً عما تضمنته الآية نفسها من الدلالة على قرب الرجوع

إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل في الدار الآخرة ، ومن الإشارة بذلك إلى انتهاء مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وبلوغ الغاية من رسالته .

وأما ما قيل غير هذا في آيات أخرى من أنها آخر ما نزل من القرآن ، فانه يصح حملها على أن المراد أنها أواخر مخصوصة متميزة بما نزلت فيه من وقائع ومناسبات ، لا أنها آخر ما نزل من القرآن إطلاقاً .

فآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا » ، وآية : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » — إذا صح نزولهما مع آية : « واتقوا يوماً ، دفعة واحدة ، كترتيبهما في المصحف ، فانهما يشاركانها في الآخرة ، ويكون كل ما وقع من الرواية أنه أخبر كل راو عن بعض ما نزل من هذه الآيات الثلاث بأنه آخر ما نزل ، وهذا صحيح في ذاته إذا نظرنا إلى ذلك .

وآية : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » متميزة بأنها آخر الآيات التي نزلت في النساء ، فهي آخر متميزة ، لا آخر مطلق .

وآية : « ومن يمتثل مژمنا متعمدا فجزاؤه جهنم » متميزة بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل إطلاقاً .

وآية : « يستفتونك ، قل : الله يفتيكم في الكلالة » ، يمكن حملها على أنها آخر ما نزل في المواريث ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

والقول بأن سورة المائدة هي آخر ما نزل من القرآن ، محجوج بأن المراد به أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فهي آخر متميزة ، لا آخر مطلق .

وكذلك القول بأخرية خاتمة سورة براءة محمول على أنه آخر ما نزل من هذه السورة لا أنه آخر ما نزل مطلقاً ، وأيضاً آخر آية من سورة الكهف قالوا فيها : إنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ، ولا تغير حكمها ، بل هي مبنية محكمة ، فهي آخر متميزة لا مطلق .

وسورة : « إذا جاء نصر الله والفتح » محمولة على أنها آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً كما قال ابن عباس ، أو على أنها آخر ما نزل مشعراً بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه قال حين نزلت « نعت إلى نفسي ، وأن عمر بكى حين سمعها وقال : « الكمال دليل الزوال » .

وأما آية : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، فإنها وإن كانت قد نزلت في حجة الوداع ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعيش بعد نزولها أكثر من إحدى وثمانين ليلة ، إلا أنه قد علم أن هناك قرآناً نزل بعدها بأكثر من شهرين ، وأن آية : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » قد نزلت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال فقط ، فتكون آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » آخر ما نزل من القرآن خاصاً بكال الدين وإنجازه ، وإظهاره على الدين كله ، وإقراره في البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، فهي آخر مقيد لا مطلق ، ويشير إلى ذلك قول ابن جرير في تفسير هذه الآية : « الأولى أن يتناول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون .

ويؤيده أيضاً قول ابن عباس : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت براءة نفي المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة - وأتممت عليكم نعمتي - . وإذا كنا قد عرفنا من هذا آخر آية نزلت بالمدينة فأخر سورة نزلت بها ، هي سورة براءة ، وآخر سورة نزلت بمكة هي المؤمنون ، ويقال : العنكبوت ، وقد عرف فيما سبق أول ما نزل بهما من القرآن الكريم .

من الحكم

أنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم من قصيدة حماسية :

ولا خير في حسن الجسوم وطولها	إذا لم تزن حسن الجسوم عتول
فكائن رأينا من فرع طويلة	تموت إذا لم تجمين أصول
فإن لا يكن جسيماً طويلاً فإتنى	له بالفعال الصالحات وصول
ولم أر كالمعروف أما مذاقه	خلو وأما وجهه فجميل